

# مَهْدُ الْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ فِي الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ

ترجمة: فاطمة عصام صبري

بقلم: د. جورج سارتون

اطلعت السيدة فاطمة عصام صبري في مكتبة جامعة دمشق على محاضرة الدكتور جورج سارتون التي عنوانها «The Incubation of Western Culture in the Middle East» وأعجبت بمضمونها الذي ينوه بالشرق الأوسط ويعتبره مهدًا للحضارة الغربية . وقد عمدت منذ مدة فنقتلتها إلى العربية . ثم تبين أن الدكتور عمر فروخ قد سبق وترجمها إلى العربية وأدرج حواشيهَا في الترجمة نفسها ونشرها بعنوان «الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط» فتمهنت في تشرها . وقد رأينا نشر ترجمة السيدة فاطمة توكيدا لمضمون المحاضرة وتيسيرًا لمقارنتها بالترجمة السابقة ودقعاً لبعض المغامز التي تؤخذ على المؤلف ، مع أنه من أكثر المستعربين انصاف للحضارة العربية الإسلامية ومن أشهر مؤرخي العلوم في العالم .

## مقدمة :

تزداد قيمة المعلومات التي تضمنتها هذه المحاضرة والحواشى التي تذيلها بالرجوع إلى كتاب المؤلف ، «المدخل إلى تاريخ العلم» (ثلاثة أجزاء في خمسة مجلدات ، نشرها معهد كارنيجي في واشنطن عام ١٩٢٧ - ١٩٢٨) ، وسترد الإشارة إلى هذا المرجع هنا بلفظ «Introd.» وكذلك بالرجوع إلى بحوث ظهرت في مجلة «ايزيس» وهي مجلة مقصورة على تاريخ العلم (واحد وأربعون جزءاً ، بلجيكية . وكمبردج ١٩١٣ - ٥٠) . وثمة أيضاً مقتطفات قليلة وردت في نص المحاضرة ولم توضح بين قوسين وهي مأخوذة من مقال للمؤلف بعنوان : «التراث العلمي العربي» أسلهم به في كتاب وضع أحياء لذكرى المستشرق الكبير الكبير أغناس غولديزيهر وعنوانه (في ذكرى غولديزيهر ، الجزء الأول ص ٥٥

\* نص المحاضرة التي القاها الدكتور جورج سارتون الأستاذ في جامعة هارفرد ، بتاريخ ٢٩ آذار سنة ١٩٥٠ م ، في مدرج كوليدج من مكتبة الكونغرس ، برعاية مكتبة الكونغرس نفسها ومؤسسة جورج ك. كايزر .

- ٧٢ بودابست ١٩٤٨ Ignace Goldziher Memorial Volume ) . وكل رمز مثل XII-2 يرد بعد اسم العلم ، يعني أن العلم المسمى قد عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر وان مقالة قصرت عليه في كتاب المؤلف « المقدمة » .

وقد اتبع المؤلف في كتابة الأسماء العربية القواعد نفسها التي جرى عليها في « المقدمة » والتي تداولها العلماء الذين كتبوا بالإنكليزية على وجه العموم . ونسخت تهجية كل كلمة بأمانة دون محاولة تبيان طريقة لفظها التي ربما تفاوتت من بلد عربي إلى آخر . وبصورة خاصة لم أحاول محاولة ما أن أشير إلى ادغام آداة التعريف بأول حرف من الكلمة المحلاة بها ولا أني وصل لفظ بلفظ في كلمة مركبة ، ذلك أن العالم باللغة العربية لا يحتاج إلى مثل هذه الإشارات ، وغير العالم بها لا داعي لايقاعه في الحيرة . وهكذا كتبنا « Dār al-Salām » لا « Darussalam » و « Ibnal-Nafis » لا « Ibnunnafer » فهذه نقاط ينبغي على المتكلم أن يلم بها وربما لا يسع الكاتب أن يشير إليها . وقد أضفت العواشي والمصادر بغية أن تعين القارئ على مراجعة مقالات المعاشر وأملاً أن تساعدة على مواصلة البحوث .

### جورج سارتون

### مهد الحضارة الغربية في الشرق الأوسط

أقدر الشرف الذي توليني إياه مؤسسة جورج كـ. كايزر بتسميتها أول محاضر لها، وأعتبر دعوتي للكلام في هذا المنتدى اللطيف الذي يرجع الفضل فيه إلى كرم السيدة اليزابيت سبرينغ كوليدج مزية كبيرة . لقد شديدة السيدة كوليدج للموسيقيين وعشاق الموسيقى فأرجو ألا تكون محاضرتى غير لائقة به . أنا لست موسيقياً مبدعاً ولكنني وقفت سنين طوالاً من حياتي وأنا أسبغ مسحة التألف على البوح بين العلم والثقافة الإنسانية وأشار وجهات الاختلاف بين الشرق والغرب، فليس في الأرض ولا في السماء موسيقى تعدل في جمالها توافق القلوب الصديقة أو المتحابة .

لعلكم تعلمون أن المؤرخين القدماء يطيب لهم أن يبدأوا اعتباراتهم التاريخية من أول البداية بآدم وحواء . وعليينا أن ننهج على غرارهم ، لأن « شجرة معرفة الغير والشر » ( سفر التكوين ٢ : ٩ ) كانت قائمة في وسط جنة عدن . لقد دارت مناقشات طويلة بين الباحثين ( ولن تدرج تدور ) عن موقع هذه الجنة الدقيق ولكننا لا نعطيه إذا قلنا أنه في مكان ما « بالشرق الأوسط » .

لنقف هنيئة في ظل تلك الشجرة لأن الوقوف يذكرنا بجزء آخر من الحكمة القديمة . ذلك أن جنة عدن أو الفردوس هي دار الكمال التي ضيعها آدم وحواء حين أخرجها منها . لقد جرى أكثر الشعوب القديمة على أنه كان في الماضي البعيد عصر ذهبي فسد الناس بعده شيئاً فشيئاً . رأى الشاعر اليوناني القديم هسيود مثلاً أن عصر الذهب

الذي كان عصر السلام والكمال ثلاثة عصر الفضة ثم عصر الصفر ثم عصر الحديد<sup>(١)</sup> .  
وإذا تابعنا تأملاته لزم أن تكون الآن في عصر اللدائن (البلاستيك) أو في عصر النفط ،  
أفتكون تلك النهاية أم بداية عصر جديد ؟

حتى ان عبقريًا كالرياضي والفيزيائي الهولندي سيمون ستيفن (١٥٤٨ - ١٦٢٠)  
آمن بوجود عصر أسطوري للعلم والحكمة في الماضي ، لعل من الممكن استعادة مجده  
بوسائل متنوعة كاستعمال اللغة الهولندية مثلاً<sup>(٢)</sup> .

بتعبير آخر لم يؤمن القدماء بالتقدم ايماننا به اليوم ، بل كانوا بالأحرى يؤمنون  
بالتقهقر وبأنه بعد العصر الذهبي الذي وجد قبل زمن طويل في الشرق الأوسط ما فتئ  
النوع البشري يتعدد من السوء إلى الأسوأ . ولقد شد استثناء واحد عن هذه القاعدة  
وهورجل بلغ به التفاؤل حد الإيمان بالمستقبل . ذاك هو الفيلسوف الروماني العظيم  
سينيكا القرطبي ، الذي عبر عن حقيقة التقدم في مجال المعرفة تعبيراً واضحاً جداً<sup>(٣)</sup>  
ومما لا شك فيه أن التقدم في هذا المجال أمر محسوس . إن وجود النشاط العلمي  
هي وحدها بين الأعمال الإنسانية تتواتر وتتقدم ، ولهذا السبب يجب أن يتركز  
تاریخ النوع البشري في تاريخ العلم .

وقد اتسعت فكرة التقدم شيئاً فشيئاً في العصور الحديثة فتجاوزت مضمار العلم إلى  
حياة الإنسان بأسرها ، ووصل هذا الاتساع إلى ذروته في عهد الملكة فيكتوريا . فقد شاع  
في ذلك الوقت اعتقاد عام بأن العالم يسير يوماً بعد يوم نحو حياة أفضل ، وإن النوع  
البشري وإن كانت رؤيته مصائب متلاحقة كالمرض والفقر والخطايا أو داهنته كوارث  
عارضه كالسيول والسيول المجدبة والغروب فقد كانت تلك المصائب تعتبر جانحة نحو  
الضعف والتبدة . وإن جليلات الكوارث يمكن في آخر الأمر تحاميها . قلماً كان يعكر  
صفو الناس إذ ذاك أمر ، ونعمت الطبقة الرفيعة والطبقة المتوسطة في إنكلترا وأمريكا  
بيسر لم يجرؤ على نكرانه إلا النذر البسيم من الناس . وكان أهم اعتراف على هذا  
التفاؤل الشامر ما أورده إدوارد كاربنتر Edward Carpenter (١٨٤٤ - ١٩٢٩)  
في كتابه ذي العنوان المتعدد «المدنية سببها وعلاجها»<sup>(٤)</sup> .

ومن الطريف حقاً أن المصلحين الذين كثيراً ما نددوا بمصائب المجتمع ومظالمه كانوا  
متخصصين كبقية الناس يؤمنون مثلهم بأن العالم (على سوئه) يتقدم يوماً بعد يوم .  
بل إن رجال العلم إذ ذاك تجاوزوا في تفاؤلهم حدود الحكمة . بيد أن الكشف الشوري التي  
تمت في نهاية القرن الماضي وغرة هذا القرن هشمت ذلك الاطمئنان العلمي وغداً أفال  
رجالات العلم أقل ثقة من أقرانهم في الماضي وأكثر تواضعاً<sup>(٥)</sup> .

وقد تزعزع هذا التفاؤل الصلف عند أولئك الموسرين من الناس في أبان الحرب  
المسلية الأولى ثم انهار تقريراً في غمار الحرب الثانية . وما نحن أولاً قد عدنا إلى موقف  
أقرب من الصواب .

ان التقدم لا يقتصر على مجال العلم وحده حيث يبدو واضحاً وإنما يتتجاوزه إلى مجالات أخرى متعددة ، ولكن يجب ألا نغالي في التفاؤل ذلك لأن كل تقدم اجتماعي إذا وجد كان دائماً معرضاً للزوال وقد تساوره الكوارث فتقطع عليه سبيله أو تودي به . وقد يكون التقدم على مر الزمن حقيقة واقعة لا ارتياط فيها وأكيدة ولكن حياتنا شوط قصير وربما لا يساعدنا الجد أن نشهد ذلك التقدم ، ان المدنية ليست مرضًا بل هي توازن دقيق جداً قد ينقلب فيمسه الاختلال بطرق شتى . وكلما ازدادت المدنية اشتباكاً كان التوازن الذي ترتكز عليه أكثر وهنا وأسرع عطباً ، وكلما سمت على ما كان انهياراً أعظم ، لقد كان انهيار ألمانيا واليابان عبرة للمعتبرين .

وعلى أية حال اذا شئنا أن نفهم تاريخ النوع الإنساني أي أن ندرك كنهه فإن علينا أن نركز انتباها على عناصر التقدم فيه أي على تكامل العلم . فتاريخ العلم (أو تاريخ المعرفة) يجب أن يكون نواة كل تاريخ للحوادث الإنسانية . والانسان يميزه عن سائر الحيوان ذلك الاهتمام المتقد بالخير والعدالة والجمال والحقيقة ، فإن هو فقد اهتمامه بأي من هذه القيم الروحية فإنه لا يعود أن يكون بهيمة ، بل هو أشد البهائم قدرة وأعنفها قسوة . ولذلك يكون أهم فصول التاريخ تاريخ الدين وتاريخ الفن وتاريخ العلم . على أن التقدم في تاريخ العلم وحده من فصول التاريخ تلك كلها يبدو ملماً وأكيداً ولذلك لزم أن يتبعه تاريخ العلم مكان الصدارة في صورة التاريخ كلة . وعلى هذا يكون تاريخ العلم قد بدأ حقاً فيما تواضع الناس على تسميتها بالشرق الأوسط مع أنه يستحيل الجزم في أي جزء من الشرق الأوسط استهلت تلك البداية بالجزء الغربي منه أي مصر أم بالجزء الضارب إلى الشرق أي ما بين النهرين<sup>(٦)</sup> .

ان ديننا لمصر ولبلاد ما بين النهرين لجسم . جسم حتى ان أوجز خلاصة عن ما شهدت العصور المأهولة من تطور في هذه العصيرة . حسبي هنا أن أذكركم بهذا الأمر وهو ان كلا الشعوبين كان أول من وجد وسيلة للكتابة . وأغلب الفتن ان هذا الكشف المدهش كان أصيلاً في كل من البلدين . وأياماً كان الأمر فقد كان نهجاهما في الكتابة متفاوتين : اختار المصريون الهيروغليفية لكتابتهم لغتهم واكتشفوا أفضل مادة للكتابة عرفت في العصور القديمة وهي البردي ، كانت صفحاته المصقوله تيسراً على الكتابة أن يزاولوا فنونهم على أكمل وجه . على حين اكتفى السومريون بمادة أفقى جداً من البردي وهي ألواح الفخار فحدثت هذه الألواح صيغة خطهم السماري . ومع ذلك فقد أتقنوا الكتابة عليها حتى غدت اللغة البابلية والكتابة المسماوية قبل نهاية القرن الخامس عشر (ق.م.) مطitti السياسة الدولية . كذلك استعمل هذا الخط لكتابه لغات متعددة في آسية الغربية . ثم أفضى استعمال البردي إلى اختراع المجلدات أو الكتب في حين كان ألواح الفخار امتياز عظيم وهو أنها لا تختلف<sup>(٧)</sup> ، إلا أن هذه ألواح كان يبقى بعضها منفصلاً عن بعض ، فلم يكن يسيراً ضمها معاً (كما يتيسر ذلك لصفحات البردي ) ، وعلى هذا لم يكن عند البابليين كتب كالتي كانت عند المصريين ولكنهم عوضوا ذلك النقص باختراع وتجوييد مبكرين في إنشاء السجلات والمكتبات المنظمة .

يعرف معظم الناس عن العقرية المصرية أكثر مما يعرفون عن العقرية البابلية . فقد خلدت عجائب العمارة في الهندسة المصرية كالأهرام والمسالات والمعابد العظيمة على حين درست الأبنية الآجرية في ما بين النهرين أو شوتها صروف الزمان . والحق أن المسالات العديدة تتفق في كثير من عواصم أوروبا وفي نيويورك أيضاً<sup>(٨)</sup> شاهدة تعلن تلك العقرية المصرية .

ندين لكلا الشعرين بفجر الفن والأدب والرياضيات والفلكلوكيميات وبكثير من الصناعات بل إننا مدینون لهم ديناً عميقاً بكتابنا المقدس وديننا وحقوقنا وسجايانا الخلقة .

ولقد كان عسيراً قبل هذا القرن قبول هذه الفكرة وهي أن مهد المدنية الغربية انما يقع على شواطئ النيل والفرات ، بيد أن هذه الحقيقة أصبحت اليوم ساطعة جداً ، ونحن نستطيع أن نجزم بلا تردد فتعلن أن العلم الغربي قد ولد في تلك البلاد المجدودة .

ومنذ عهد غير بعيد حسب الباحثون أن جذور المدنية الغربية ينبغي أن تلتمس في اليونان للعلم وفي فلسطين للدين ولم يحاولوا أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك . واليوم نعرف أن اليونان واليهود هم جميعاً مدینون للمصريين ولليابانيين بل ربما أخذوا أيضاً عن شعوب أخرى رائدة<sup>(٩)</sup> .

فالعلم اليوناني لم يكن بدأً جديداً وإنما هو استمرار لجهود يرجع تاريخها إلى أبعد من ألفي عام وراء ذلك على الأقل . لدينا ممؤلفات مصرية مفصلة في الرياضيات والمطب يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر (ق.م ٢٠) غير أنها مستفادة من كتابات أخرى تقدمت عليها أيضاً بعده قرون . ويتحدث أطباؤنا عن أبقراط على أنه أبو الطب وخير لهم أن يتذكروا أن أبقراط لا يقف في أول طريق الطب بل في منتصفه بين الطبيب المصري القديم أمحوت وبيتنا<sup>(١٠)</sup> .

ان أقدم علماء الطبيعة بين اليونان (هم الذين كانوا يدرسون الطبيعة) وأقدم فلاسفتهم (محبى الحكمة) لم تتألق نجومهم في أوروبا بل على شاطئ آسيا الغربية والعمر المعاورة له . كانوا ينتتمون إلى جاليات يونانية ولكنهم خضعوا للتغيرات الشرقية . كان اليونان أنفسهم يرونون بأبصارهم إلى الجنوب وإلى الشرق يلتمسون مهد المعرفة والحكمة وكثير منهم من رحل إلى مصر وبابل بغية البحث . اني أدعوهم يوناناً وهو تعbir يفتقر إلى الدقة . اذ شد ما اختلطت العروق مراراً في الشرق الأوسط وشرقي البحر المتوسط في غرة الألف الثاني (قبل الميلاد) .

لقد حجب المؤرخون الكلاسيكيون عنا النظر في هذه الحقائق . لنأخذ مثلاً أقوالهم في العرب الفارسية وأقولهم عن المأثر البعيدة لموقعتي ماراتون (ق.م ٤٩٠) وسالاميس (ق.م ٤٨٠) اذ قد تصور هذه العرب على أنها نزاع بين الاستبداد الآسيوي والديمقراطية اليونانية بيد انه من التضليل الكبير أن تعيق حرباً بين الشرق والغرب . ذلك أن الفرس كانوا حلفاء للفينيقيين الذين كانوا يتشهبون بالغربيين تشبه يهود العصر

الحاضر بهم في حين كان كثير من اليونانيين يرسمون خطأ الشرقيين . ولم تكن تلك الحروب كذلك نزاعاً بين الآريين والساميين لأن الفرس كانوا كأغلب اليونان آريين على حين كان حلفاء الفرس الفينيقيون ساميين ، وكذلك كانت الامبراطورية الأخامية تركيباً مشتبكاً من عروق الشرق الأوسط وشعوبه ، استرجت جميعاً مراراً في أبان الوف السنين . وكانت الآرامية هي اللغة العامة في تلك الامبراطورية وهي لغة سامية . يجرب إلا يغرب عن بالنا أن الشرق الأوسط هو أرض تقع في ملتقى سبل متعددة . وإذا دعيت بلادنا أحياناً بالبوتقة فإنه لوصف أشد انطباقاً على الشرق الأوسط مع فارق كبير هو أن أمريكا كانت بوتقة زمناً ينفي قليلاً على مئتي عام على حين كان الشرق الأوسط كذلك موطنًا لامتناج الشعوب مدة أطول بعشرين مرسملى الأقل .

لنعد إلى العلم اليوناني . لقد تخلله تأثيرات شرقية متنوعة إيرانية وبابلية ومصرية . أمثال تلك التأثيرات يمكن أن نتفقها في كتابات أفلاطون فضلاً عن كثير من الكتاب اليونان الآخرين الذين بدا الأثر الشرقي فيما كتبوا أشد وضوحاً(١١) .

ولو أمكن اجراء مسح لجميع الأفكار الشرقية التي تتضمنها الكتابات العلمية اليونانية لكان ذلك مفيداً بيد أنها مهمة طويلة ليس بوسعنا الا التنوية بها في الوقت الحاضر .

بدلاً من ذلك يجب علينا الآن أن نهجر الماضي البعيد ونحلق طوال القرون حتى نصل إلى القرن السادس الميلادي ولنقل على وجه التحديد إلى سنة ٥٢٩ التي أبّرها القرن حين أغلقت أكاديمية أثينا وافتتح ديرموتون كاسينوواز ليس بوسع المرء أن يجد تاريخاً أكثر ملائمة من تلك السنة ليكون العد الروحي الفاصل بين عهدين اصطلاح على دعوتهما المصر القديم والعصر الوسيط . في ذلك الوقت كانت كنائس الشرق الأوسط المتعددة المارونية والنسطورية والجريحورية والقبطية والعبشية واليعقوبية ( وهذه الأربع الأخيرة تؤمن بالطبيعة الواحدة في المسيح ) قد توطدت أركانها وبعدت كثيراً عن حظيرة الكنيسة الرئيسية .

زاد الحال سوءاً أن وحدة تلك العظيمة تمزقت شطرين بالانشقاق المشدد بين الكنيسة البيزنطية أو الأرثوذكسية في الشرق والكنيسة الكاثوليكية في الغرب .

وكثيراً ما يتعدد الكلام على الستار الحديدي الذي يفصل شرقى أوروبا عن غربيها فمثل هذا الستار فصل لمدة طويلة في العصر الوسيط بين العالمين اليوناني واللاتيني (١٣) . وفي ختام القرن الثامن كان ذلك الانقسام تماماً والخصوصة مستحکمة بين اليونان واللاتين حتى ان اللاتين لما أرادوا أن ينهلوا من ينابيع الحكمة القديمة أثروا أن يتعلموا اللغة العربية على اللغة اليونانية .

ولكني أجذني مسرعاً في الرواية . اذ يجرب علينا أن نتوقف لحظة لنقص ولو باختصار حادثاً من أخصب حوادث تاريخ الإنسانية وهو مولد الإسلام .

ولهذا الفرض يجب أن نرحل إلى جزء من أقل أجزاء العالم شهرة إلى الجزيرة العربية أرض العرب ولعل وصفاً لها يكون شائقاً . ساقتصد في ذلك الحديث معتمداً على أنكم بلا ريب تلمون بالأمور الجوهرية من قبل بل لعل منكم هنا من يعرف عن الجزيرة العربية ما لا أعرفه . كانت الجزيرة العربية إلى عهد قريب جداً تعتبر أرضاً من أفق البلاد على وجه البسيطة . وفي الواقع أن جزءاً واسعاً منها صحراء وقفر بباب مرآها يدعو الوحشة الشديدة . فيا للعجب كيف يلزمنا أن نذهب إلى مثل تلك الأرض البائسة المنبوذة لكي نشهد تجلّي الوحي الالهي الجديد ! لا شك أنكم تعرفون ذلك الشأن وحسبى أن أضطر ذاكرتكم به .

ولد أبو القاسم محمد القرشي في مكة سنة ٥٧٠ م . ولقد تأثر كثيراً لما كان فيه قومه من الجهل والجشع والقسوة واللحاجة إلى الوحدة والى الدين . ولما بلغ الأربعين من عمره عام ٦١٠ صدر بالنبوة بعد أن اتسعت تجاربه واتقد صدره بالآيمان . وكانت مكة المركز التجاري الرئيسي في شبه الجزيرة العربية ، وكان سكانها جفاة كلَّ الجفاء دُبَّ الفساد في طائفة كبيرة موسرة منهم فسلكوا معه ما سلكه أكثر الأقوام مع أنبيائهم، وبدها نصوحه المترع بالوعيد لا ينسجم وماربهم ، لم يفتحوا قلوبهم الدعوه فقط وها هم أولاء يصمون بعد ذلك أسماعهم عنها .

وفي أيلول عام ٦٢٢ أصبح لا يطيق جفاءهم فهاجر مع اتباعه إلى مكان آخر يبعد حوالي مئتين وعشرين أميال شمالاً وهو يشرب ، (فدعيت منذ ذلك الوقت بمدينة النبي أو بالمدينة اختصاراً) . وكانت تلك الهجرة الحادث الحاسم في حياته وفي قيام الدين الجديد فقد حدثت بداية هذا الدين رسميأً ولم يمض وقت طويلاً حتى اتخذ زملاؤها مطلعاً للتقويم الإسلامي .

كان هذا الرسول مثل أنبياء (العهد القديم) ولكنه نجح في رسالته نجاحاً لا يضاهيه فيهنبي منهم . وكانت الآيات التي يوحى بها الله إليه تستظهر أو تكتب بياناً عربياً رائعاً . وجمعت أخيراً في كتاب سمي القرآن (أو المصحف Recitation) وهو كتاب الإسلام المقدس جمعه بعد وفاة الرسول بقليل في سنة ٦٣٢ أحد أمناء سره (كما نقول اليوم) وهو زيد بن ثابت ثم أعاد نسخه عام ٦٥٠ وكانت إعادة النسخ هذه نهائية .

يختلف القرآن من مئة وأربع عشرة سورة ترتبت حسب أطوالها المتناقصة إلا فاتحة الكتاب وهي سورة قصيرة تتلى في أول كل صلاة (وهي ركن الصلاة يتلوها المسلمون كما يتلو المسيحيون « آبانا ») . والقرآن أقصر من (العهد الجديد) ويختلف عنه في ملامحه فهو يشتمل على لباب العقيدة الإسلامية من آيمان وفضائل وشريعة وعبادة . وسوره الجميلة فائقة الجمال حقاً . فالرسول كان متبعداً وعالماً بالله ومبشرعاً ورجلًا عملياً ومن أعظم الشعراء في الأدب العالمي (١٤) وأطلق على الدين الجديد اسم الإسلام ، ومعناه أن يسلم المرء نفسه إلى الله . وسيجيئ معتقد المسلمين (من المصادر نفسه) : « فالدين الجديد بسيط جداً وصلف جداً كما أوحى به إلى الرسول وكما بلغه العرب ولكنها مثل غيره

من الأديان انتهى الأمر به إلى التأثر إذ سربت إليه خرافات الحمقى من الناس  
ومجادلات المتعذلتين من علماء الالاهوت ، أما في شكله الأصلي فهو حقيق بالاعجاب .

ان أركان الاسلام الخمسة هي :

- ١ - الشهادة : أو اعلان الاسلام وهي قوله (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) .
- ٢ - اقامة الصلاة : خمس مرات في اليوم .
- ٣ - الزكاة : وهي اعطاء الصدقات (١٥) .
- ٤ - الصوم : صيام شهر رمضان .
- ٥ - الحج : الى مكة مرة واحدة على الأقل في العمر وذلك للمستطيع .

وليس في هذا من مأخذ يأخذها عليها الناقد غير المسلم . وهذه الفرض على بساطتها وقلة عددها لم تكن تحتاج الى تحسين ما لأجل توطيد الايمان وقويته في نفس كل امرئ والاجل تيسير انتشاره . ان القيمة العملية لايمان المسلم يبرهن عليه قوته ذلك الايمان ورسوخه وسهولة هدايته (على نحو ما تم في افريقيا وجزر الهند الشرقية مثلاً) .

لقد كان الرسول قليل الدراسة بالكتابة(ان لم يكن أمياً) ولكنه كان ذا عبقرية كبيرة . وقد لقي ابان رحلاته في وطنه يقود القوافل التجارية لاجئين يهوداً ونصارى لهم من المعارف الروحية ما ليس للأعراب . ولما كان الرسول شديد الاهتمام بالدين كان كثيراً ما يتحدث إليهم . وهكذا وقف على علم بأمور متعددة من التوراة والانجيل ومن العقائدتين اليهودية والنصرانية ، وقد تضمن القرآن هذه المعلومات حيث ورد عدد من قصص التوراة مع قدر من التعويل (متوقع في مثل هذه الملاسبات)(١٦) . هذا ويمكن أن يؤخذ الاسلام على أنه بدعة انشقت عن اليهودية أو النصرانية ، وقد جرى مثل هذا الاعتبار في التاريخ . لقد عرف محمد أنبياء المهد القديم واحترمهم وكذلك عرف مريم البتول والمسيح ولكنه ذكر أنه رسول الله وخاتم النبيين(١٧) وعنى بذلك أنه آخرهم . وفي هذه النظرة يتم الدين الاسلامي اليهودية والنصرانية . والمنصفون يقولون ببساطة ان الاسلام هو ثالث هذه الأديان العظيمة الثلاثة التي تنتهي والتي تنتهي لزمرة واحدة . يبدو الاسلام بأحسن ملامحه كما صوره السلفيون(١٨) في كتبهم مشبهاً لذهب التوحيد النصراني . ويبدو بأسوأ مظاهره حين تسربت إليه خرافات على نحو لم تبلغه الكاثوليكية في أحط صورها ولا العبادة البيزنطية . بيدأن هذا لا شأن له بالدين ذاته وانما يرجع الى أن أشد طبقات المسلمين فقرأ كانت نسبياً أكثر عدداً وأدھى تأخراً وأقل ثقافة من جماهير العامة في ايطالية أو اسبانية مثلاً .

لنا عودة الى الحديث عن الايمان في الاسلام وعن العجائب التي حققتها فور ظهوره ولكن يجب الاشارة أولاً الى عظمة الرسول من نواح أخرى لكي أثبت صحة قوله .

الأمر الأول هو أن الرسول لم يكن يعرف لغة غير لغته<sup>(١٩)</sup> فمن الطبيعي أذن أن يعلق أهمية كبيرة على تلك اللغة . ان الذين يتكلمون لغة واحدة لا سيما أولئك الذين هم على حظ ضئيل من الثقافة يجتمعون غالباً الى اعتبار لغتهم اللغة الوحيدة الفذة<sup>(٢٠)</sup> فالوحى الالهي ائما نزل على الرسول بالعربية (وليس في ذلك ما يدهشنا !) وعلى ذلك تكون العربية لغة الله<sup>(٢١)</sup> .

وقد ألح الرسول على وجوب تلاوة القرآن بالعربية، وبسبب ذلك التصور وصدق تأكيده على شرعية اللغة العربية وحدها ، هيأ لهذه اللغة أن تكون احدى اللغات القليلة البارزة في العالم واحدى الوسائل الرئيسية للثقافة في العصر الوسيط وظللت حتى اليوم لغة عالمية الانتشار .

اسمحوا لي أن أستطرد قليلاً فأشير إلى أن نشوء ألف من اللغات وتكميلها مستقلأ بعضها عن بعض فهو سر من الأسرار العظيمة في الحياة . بعض هذه اللغات آية في البراعة والتركيب المنطقي والاشتباك . وانه ليتعذر علينا أن ندرك كيف نمت تلك البنى المشتبكة الجميلة حقاً اذ كان ذلك النمو عفويًا الى حد بعيد .

لقد وجدت اللغات الطبيعية قبل أن يفك الإنسان في النحو والصرف أو في اللغة بزمن طويل . وأنشت حقاً فرائد الأدب اليوناني قبل أن تدون كتب النحو اليوناني الأولى ، ويجوز أن يعالج جمال كل لغة بالتحليل والوصف ولكن في آخر الأمر لا يمكن أن يناله التنوية أكثر مما ينال التنوية جمال طير أو زهر . وقصارانا أن نعرب عن اعتقادنا بالجمال فنباركه بالمجيد (أو نقول ما شاء الله) ولقد اتفق أن اللغة الوحيدة التي عرفها الرسول كانت من أجمل اللغات في الوجود(وما كان الرسول ليستشف من وراء الغيب ذلك لو لم تكن له بصيرة إلهية) .

ان كنوز الكلمات العربية زاخرة لا تحصى ، وتكاد سعة ازيد يادها لا تقف عند حد ، لأن تصريف اللغة المشتبك الأنثيق ييسر انشاء مشتقات جديدة من الجذع الأصلي بحسب مقتضى الحاجات<sup>(٢٢)</sup> .

وكانما قيّض للغة التي لم يتناولها قبل القرن السابع الا البداية الجفاة أن تغدو مطيبة رئيسية للدين والعلم في العالم . ولما كانت لغة القرآن لغة الله كانت كاملة بالتعريف . وانه لاتفاق رائع أيضاً أن يكون الرسول علماباستقا في اللغة<sup>(٢٣)</sup> قمنا أن يتلقى الوحي الالهي بدقة وأن تكون صيغة ذلك الوحي كالشعر أو بلغة مثله .

لقد ساعد القرآن على توحيد اللغة العربية ، وما كان له أن يمنع نمو عدة لهجات في الاستعمال الشائع لا سيما حين صار يتكلّم العربية أبناء الشعوب الأخرى ولكنّه هيّا من تلك اللغة نموذجاً عالمياً لأرفع مأرب الحياة .

الأمر الثاني أن الرسول قد أعلن فريضة الحج على كل مسلم مرة في العمر على الأقل من استطاع إليه سبيلاً . لقد كان الحج أمراً بسيطاً نسبياً لسكان الجزيرة العربية مواطني

الرسول ، كان رحلة معتدلة الأمد في أقليم اعتادوه وألقوه (ولم يكن أحد يفكر اذ ذاك في سكان البلاد الأخرى) (٢٤) ولكن لما انتشر المسلمون في بقعة كبيرة من الأرض صار الحجع عند بعضهم فرضاً ثقيلاً . ربما استغرق عاماً أو أكثر وربما استلزم من المشقات وضروب العرمان ما هو بعيد عن التصديق . وقد عمل على تأديته عدد مدهش كبير من الناس على رغم كل عقبة . وعلى آية حال فإن معظم الزعماء أدوه غالباً أكثر من مرة . فقد حج أبو الفداء مثلاً ثلث مرات على الأقل ، وحج ابن بطوطة ست مرات (٢٥) . وفي الموسم المخصص لأداء الواجب المقدس هنا تصبح مكة والمدينة وكأنهما مقر مؤتمر عالمي يؤمه أناس وحد بينهم الفكر فيجتمعون فيه ويتبادلون وجهات النظر . وليس الهدف من ذلك أن يلتقي كل حاج أربيب بحاج بلاد الأخرى وحسب فيوسع بذلك معرفته بالعالم الإسلامي أو ما يمكن دعوته (بدار الإسلام) بل كانت تلك المؤاسم المقدسة بما تشيره من حماسة عامة تقوى أيضاً إيمان الحاج بدينه وبوحدة أمته .

وانه لغريب على المرء أن يتصور وسيلة أبسط وأنجع لضمان الوحدة الروحية لدى الجماعة المسلمة من هذه الوسيلة التي دعا لها الرسول قبل أن ينتشر المسلمون في البلاد الأجنبية والأقاليم البعيدة وتصبح الحاجة إلى الوحدة أشد مساواً أكثر اقتضاء أضعافاً مضاعفة . وإن دارس الحضارة العربية ليعجب أشد العجب بالسرعة التي كانت تسري بها الثقافة من أقصى دار الإسلام إلى أقصاها . فعندما زهرت مثلاً فلسفة أخوان الصفا وعلمهم (في النصف الثاني من القرن العاشر) في البصرة عرفت ذلك إسبانيا في وقت جد قصير، وكذلك في المقابل سرعان ما انتشرت في سوريا آراء ابن عربي الإشبيلي (٢٦) الذي عاش (في النصف الأول من القرن الثالث عشر) إذا قام بدمشق بعد أدائه فريضة الحج وبقي فيها حتى مات عام ١٢٤٠ . وقصيرى ما يراه الباحثون في هذا الشأن أن الحج كان في القرون الوسطى يعادل ما ندعوه رحلات البحث وتبادل الأساتذة بين المعاهد وأمثال ذلك في عصرينا هذا ، بل انه ليتفوق نسبياً هذه الرحلات أهمية لأن وسائل الاتصال الأخرى (كالمجلات والصحف) لم تكن اذ ذاك معروفة . كان طالب العلم يستطيع أن يوفق بسهولة بين طلب العلم وبين الحج فيتوقف في طريقه مواقف متعددة ولفترات تتفاوت حسب الاقتضاء ليلتقي بأئمة العلماء في كل بلد ويأخذ عن مشهوري الأساتذة في حلقاتهم بالمدارس المختلفة وربما تزوج ثانية وثالثة كما فعل ابن بطوطة لعل هذا يخوله أن يمتلك جديداً للمعرفة .

الأمر الثالث هو قرض الصيام نهار المدة شهر ، فقد كان اختياراً قاسياً لكل مسلم ووسيلة ممتازة لقياس إيمانه وقوية ذلك الإيمان . وما كان التقويم الإسلامي قمراً بعثاً فان شهوره لا تعود في الفصول أنفسها وإنما تنتقل تدريجياً من فصل إلى فصل . وهكذا فان رمضان ربما عاد في أي وقت من أوقات السنة وهو اذا وقع ابان التقى غدا الامتناع عن الطعام والشراب طوال اليوم اعتبر أمراً عسيراً ولا سيما على من يزاولون أعمالاً يدوية شاقة (٢٧) . كذلك مثل هذا الشأن يمكن أن يصدق على الحج الذي تؤدي فريضته في شهر مسمى لهذا المقصد وهو ذو الحجة فهو يصبح فريضة شاقة تقتضي عنـا حين يقع ذو الحجة في حمارة الصيف . الا أن هذا لم يكن أمراً بالغاً لدى العجاج القادمين

من البلاد البعيدة فقد يضللون على سفر سنة كاملة حتى يبلغوا مكة المكرمة وكان جهدهم الرفيع أشد مشقة الا انه أكثر فضلا . وال الحاج للبيب ليستطيع أن يقدر الفصل الذي يقع فيه ذو الحجة في دورة الأعوام المتتابعة وأن يؤقت زمن حجته حسب ذلك وله عندئذ أن يختار أفضل الأحوال يسراً أو أشدها مشقة . فلقد كان العجيج دائمًا فئتين : فئة دمثة الجانب تستحب أداء الفريضة بأيسر الجهود وفئة صلبة العود تؤثر التماس المشقة والتباريحة ابتغاء زيادة الفضل والثواب .

لقد أدرك النبي مدى الحاجة الى نظام قوي لدعم الایمان وتنقيتها . وشهور الصيام والحج تمريرات تهذيبية من الطراز الأول . ان كثيرة من كنائسنا تندن الى حد التفاهة بسبب تساهلها وافتقارها للنظام وقلة ما تقتضيه من اتباعها . حسب هؤلاء أن يدفعوا أجور مقاعدهم في الكنيسة لكي يتبرعوا مكانة مامن الصلاح . قد تكون أمثال هذه الكنائس مشرية ولكن لا طائل فيها . فإذا رأتم أن يكون اتباع الكنيسة مؤمنين لزムكم أن تفرضوا نظاماً متيناً وتسموهم تضحيات حقيقية . لقد عرف محمد ذلك حقاً ولـى أقصى حد وهذه سمة أخرى لعقريته النبوية .

الأمر الرابع أن الرسول حرم شرب الخمر قبل أن يهيء كشف وسائل التقطير أو شروع استعمال هذه الوسائل أشكالاً مركزة ومتوافرة من ذلك السم (٢٨) وهنا أيضاً كان الرسول عالماً بالغريب حين توقع آفات لما تذر قرونها اذ ذاك أو لم تكن على مثل انتشارها وخطرها اليوم . فلا مسلم اذن يشرب الخمر وضميره مطمئن فان شربه فهو مرتد أو منافق (٢٩) .

وخلاصة القول أن الرسول [عليه السلام] أذاع عقيدة التوحيد قبل مجيء طائفة الموحدين المسيحيين بما يناهز تسعة قرون وأعلن تفوق اللغة العربية دون أن يعرف لغة غيرها ، وأنشأ مركزاً حضارياً للإسلام قبل أن تبرز شدة الحاجة الى مثل هذا المركز حين بدأ الناس يدخلون في الدين أفواجاً من مختلف الشعوب والعرقوق ، وبادر الى تحرير شرب المسكرات بزمن طويل قبل أن يصبح او ( يوشك أن يصبح ) السكر كارثة كما هو في أيامنا هذه .

دعوني أؤكد هذه النقطة : لم يتحقق لنبي أن يحقق نبوته تحقيقاً تاماً كهذا الرسول وبصورة خاصة قيس تنويهه بعلو اللغة العربية وبحاجة الدين إليها انتشارها الراهنة وسيادتها قروناً كثيرة (٣٠) .

ولولا دفاعه الضمني عنها لبقيت العربية لغة قبلية لا شأن لها أو لاندثرت الاندثار كله على نحو ما تعرضت للنزو والفتا نصارى الشرق الأوسط المقدسان : السريانية والقبطية لما توانوا في أمرها . لم يكن محمد نبي الاسلام وحسب بل هو فوق ذلك نبي اللغة العربية والحضارة العربية بصرف النظر عن العروق والقوميات والأديان التي تنتهي اليها .

لقد قبلت القبائل العربية عموماً الدين الجديد بسرعة مذهلة وهكذا وجدت أنفسها موحدة على أساس متيّن لأول مرة في تاريخ وجودها . وهنالك برهان أكيد على سرعة قبول هذا الدين وهو وضع التقويم الجديد (الذي لا يعني به الا المسلمين) وكذلك اتخاذ

تاریخ جدید یعتبر مطلعه ۱۵ تموز سنة ۱۶۲۲ ای بعد الهجرة بسبعة عشر عاماً فقط . على حين مرّ خمسة قرون او عشرة على وضع التاریخ المسيحي حتى رسخ . ولكن الذي سهل توسيع التقویم الاسلامی طبعاً انه ورد في القرآن فندا بذلك جزءاً هاماً في الدين (۳۱) وأثناء ذلك اتسعت رقعة الاسلام بالسیف (۳۲) وفي هذا الاتساع كان المظ (۳۳) والشجاعة حليفين متکافئین عقداً الفار على رؤوس الفاتحین ، فلا يعود الفضل في انتصاراتهم الى قوتهم واتقاد حماستهم ( وان كانوا عظیمین ) أكثر منه الى ضعف أعدائهم وتفرّقهم . لقد كانت الامبراطوریتان البيزنطیة والفارسیة تتداعیان منذ قرون . وقد أوهنت كل منهما الآخری بحروب متصلة ، وعلاوة على ذلك كانت الادارة البيزنطیة الکنسیة والمدنیة ترھق نصاری آسیة احتقاراً وظلماً حتى غدا هؤلاء سراعاً في خیانتهم لها ولی عدو ذی بأس ، فما كان بوسع كلتا الامبراطوریتين أن تقاوم العاصفة (۳۴) .

وقصة الفتوحات الاسلامیة الأولى تحکي الى حد بعيد قصة انتصارات هتلر في أوروبا في عصرنا هذا (۳۵) سقطت دمشق في آذار عام ۶۳۵ ، وخطّت موقعة القادسیة في شهر تشرین الثاني من العام نفسه نهاية الامبراطوریة الفارسیة ، واستسلمت القدس وخضعت بلاد ما بين النهرين سنة ۶۳۷ . وفتحت مصر في ۶۴۰ - ۶۴۱ . أما فتح اسپانيا فقد تأخر الى سنة ۷۱۲-۷۱۰ الموافق ۹۳-۹۱ هجریة . ثم كل هذا في ابان القرن الاسلامی الأول (۳۶) .

ولكي نقدر هذه الحوادث حق قدرها يجب أن نتذكر أن العرب كانوا اذ ذاك قریبی عهد من حال البداوة . لقد قایس بعض المؤرخین الفتوحات العربية لآسیة وأفريقياً وأوروبا بهجرة الجفاۃ المتوجهین (الهون - القوط - الفاندان والغيرهم) الذين قوضوا الامبراطوریة الغربیة (عام ۴۷۶) واستمرروا في طمس معالم أوروبا قروناً متعددة بعد ذلك (۳۷) . ان البدو لم يكونوا ليختلفوا عن الهنود الحمر، في الغیر والشر ، وانتصارهم على أكثر البلاد تمدداً في ذلك العهد يبدو لأول وهلة متناقضأكما لو نجح الهنود بالتفغلب على الرواد الامريکيين وامتلكوا أعنی أمرهم وأدخلوهـم في خدمتهم . قد يفيد مثل تلك الموازنة لبيان التقاض الكبير بين المنتصرين والمغلوبین ، ولكنه داحض في جوهره . لقد كان الفاتحون العرب في أول أمرهم بداعاً أمیین الا أن ایماناً ملتهاً كان يوحد صفوفهم ويزيدهم مجداً ، وفي هذا الشأن أيضاً تحققت نبوة الرسول تمام التتحقق . لم تكن الفتوحات العربية نتيجة صراع بين متوجهین جیاع وسكان مدن متداعیة ، بل كانت على الأصح نتيجة صراع بين دین جدید وحضارة جديدة ناشئة من جهة وبين عدّة مدنیات منحلة سيئة مضطربة من جهة أخرى . كانت الى حد بعيد ضرباً من حرب صلیبیة مضادة كانت انتصاراً للهلال على الصليب (۳۸) .

تفاصيل هذه الجهود الهاائلة تعنى المؤرخين السياسيین ولكن الأحوال النفسیة القومیة التي تتلامح وراءها لدى الجانبين الجانب المغلوب والجانب الغالب موضع اهتمام بالغ عند مؤرخي العلوم . لقد كان الایمان المسيحي يتقوض منذ عدة قرون بسبب المشاحنات اللاهوتیة وحرمان عضوية الکنیسة الذي كان يتبادله المسيحيون ، وكان الاسلام من جهة ثانية في ریغان نموه مجتمع الكلمة ، والجنود المسلمين تحفظهم آمال جسام بالشراع والسلطان

في هذا العالم وأعمال بالثواب العالد في العالم الآخر . كان الایمان في الاسلام بسيطاً كريماً معتملاً ومع ذلك اذا جد الجد اتقد الى أبعد مدى وانقلب المحاربون اولئك بأس شديد يبلغهم الظفر او الشهادة ، كلها سيان عندهم . ومع أن المسلمين كانوا قادرين على التسامح فإن قوتهم كانت مترتبة الى حد بعيد على شعورهم بالتفوق الذي يعثرون في نفوسهم النصر السريع وعلى الازدراء الأصيل الذي يكتونه لغير المؤمنين (٣٩) .

وما كان بوسع الفزوة المسلمين في مطلع فتوحاتهم أن يغالوا في التشدد لأنهم كانوا بحاجة للتعاون مع الشعوب المغلوبة ، كان أطفال الباية يجهلون كل شيء إلا دينهم وشعروهم فلم يكن يسعهم ادارة البلاد المفتوحة، ومن حسن حظهم أن فريقاً ساختاً بين اليونان والسوريين واليهود والأقباط وأهل العراق والاسبان وغيرهم كانوا راغبين في خدمتهم . وقولنا ان العرب كانوا بحاجة لعون بعض هؤلاء الغرباء تعبير غير كاف ، فإنهم لم يكونوا قادرين على أن يصنعوا شيئاً دون ذلك العون . لقد شيدت الامبراطورية الاسلامية (٤٠) بالمشاركة الراضية من قبل اليونان والفرس والأقباط وغيرهم ، نصارى ومجوساً وصائبة ويهودا . ولم يكن المسلمين بحاجة للعون في مجال الدين والأدب ، أو هكذا حسبوا ، ولكنهم سرعان ما أدركوا ان الامتياز الثقافي لبعض الأجانب يرجع الفضل فيه الى جهازهم التقني أو العلمي .

وهذا يمهد لبيان ما يمكن أن تدعوه معجزة العلم العربي مستعملين كلمة معجزة ترمز الى قصورنا عن تفسير ما قدموا من منجزات تكاد لا تصدق وليس في تاريخ العالم كلّه ما يشابهها الا تمثل اليابانيين للعلم الحديث والتكنولوجية في العصر الميجي (٤١) . وهذه الموازنة مفيدة لتمثيل الحالين في الأصل: أدرك قادة الفكر العربي الحاجة الى العلم اليوناني ادراك اليابانيين قبل جيلين مدي حاجتهم الى العلم الأوروبي . كلا الفريقين كان العاج الحاجة خير معلم له . كلها توافرت له الارادة وضرب من الطاقة الروحية يتغلب على العقبات الكوءة .

ولم يتح لهم ما يكفي من التجربة ولا من الصبر للتأمل في تلك العقبات فيخشواها . انهم اقتحموها اقتحاماً .

يهون كل شيء على المرء اذا لم يتصور ما فيه من مشقة . يجدر هنا التنويه بأن تكامل العلم العربي الذي جاوز التصديق لم يبدأ الامتد النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة . كان الرسول عميق الاهتمام بالحياة الأخرى وبقضايا الأخلاق والدين التي تتصل بالحياة الدنيا فشغله ذلك بعض الشيء عن العلم . حاول بعض المدافعين عن الاسلام في العصر الحديث أن يتلمسوا في القرآن طائفة من الآراء العلمية ولكن هذا ليس بمقدورهم الا اذا أعطوا الكلمات مضموناً ما خطر على بالالرسول أبداً ولا على بال أحد غيره مدى قرون (٤٢) ولم يكن الخلفاء الراشدين أكثر عناية بالعلوم من الرسول [بلة] ، ويبدو أن الكتاب اليونان الذين في خدمتهم كان المأمور بتصريف الأعمال والإدارة أكبر من المأمور بالعلوم كما غبروا منذ حين عاجزين عن تقدير أعمال أجدادهم الفكرية . وبالجملة لم يوجد

علم يمكن التحدث عنه في المدينة أو في مكة أو حتى في دمشق ، ولم تظهر معجزة النهضة العربية قبل قيام العلامة العباسية في بغداد . مما الذي حدث هنالك ؟ لقد نشطت العبرية العربية بفعل الخمرة الإيرانية إذ كانت المحسنون العرب والفارسية ( والعبيوب كذلك ) متاتمة . ويرجع الفضل في معجزة العلم العربي إلى تفاعل المغزيم والمجد العربي والإيمان الإسلامي بالفضول والتفسير الفارسيين . ولوضع هذا القول في صيغة أعم نقول :

إن العلم العربي كان ثمرة لقاء العبرية السامية بالعبرية الإيرانية (٤٣) . ولعل هذا القول عام جداً وبعيد من أن يكون قوله محكمأقيقاً ولكنه يساعدنا بوجه التقرير على تفهم ما تم حدوثه في بغداد . فقد استطاع الحكام المسلمين خلال قرنين من الزمن ( ٩٥٠ - ٧٥٠ م ) أن ينقلوا المعرفة اليونانية إلى اللغة العربية بوساطة رعاياهم الذين يتقنون عدة لغات وأكثر هؤلاء نصارى ويهود .

لقد حاول بعض المؤرخين أن يخففوا من شأن هذه المنجزات الكبيرة مدعين بأنه لا أصالة فيما قدمه العرب وانهم ليسوا سوى مقلدين . ومثل هذا الحكم خطأ كله . ذلك انه من وجه ما لا شيء أعمق أصالة من ذلك السفه الشديد للمعرفة الذي كان يليج بالقادة العرب . لقد كانوا حقاً في حاجة مباشرة إلى جزء من تلك المعرفة للادارة والحكم ولكنهم تجاوزوا بسرعة المرحلة النفعية إلى مرحلة أخرى أسمى منها . قد يقول المرء إن الطلب معرفة عملية ومثله الفلك اذا اتصل بمارب التجارب ولكن العرب ترجموا كثيراً غير ذلك في الرياضيات والفلسفة التي لم تكن تدع ذات نفع الا باعلى الاعتبارات الأفلاطونية . وقد يقول معارض أيضاً ان أكثر أولئك الترجمات كانوا أجانب غير مسلمين بل كانوا غالباً من غير العرب . وعلى هذا كان كل فضل في هذه الترجمات يعود إليهم لا إلى رؤسائهم .

كلا انما الفضل لكلا الفريقين . ولقد كان أكثر أولئك الترجم أجائب لسبب بسيط وهو ان الخطة تستلزم درجة من معرفة اللغات لم تتوافر للفاتحين المسلمين . فلكي يترجم المرء من لغة إلى أخرى يجب أن يتقن كلتا اللغتين . وأمثال تلك الكفايات التي كان يتحلى بها أولئك الأجانب كانت لازمة ولكنها غير كافية . وبصورة عامة لا يتم عمل لا سيما إذا كان عملاً طويلاً ومفروضاً الا اذا كان ثمة من عقد العزم على أدائه . وكفل الباحثين الذين يقومون له . لقد كان الزعماء العرب تواقين إلى إنجازه متلهفين لتسخير سبل ذلك الانجاز . ولهذا كانوا كثيراً ما تجري المنافسة الكريمة بينهم في هذا المضمار فالمبادرة إلى ذلك اذن كانت مبادرتهم .

يعحسن أن نتوقف قليلاً لنسأل أنفسنا : « ما التقليد ؟ » . نحن كلنا نقلد بالطبع آباءنا وعلميينا وأبطالنا . أما الأدعية فيسيرون التقليد ، فهم ينسخون ظواهر الأشياء وأما العباقرة فيحسنونه ويبدعون أشياء جديدة . وهدف التربية الحقيقي هو المحاكاة الحكيمية لأفضل الأمثلة ، المحاكاة المناهج لمحاكاة النتائج وقد تم التقليد العربي في عدة مراتب وعلى عدة أنواع منها الصالح ومنها الطالع .

ولقيت خطة ترجمة المؤلفات الفلسفية والعلمية من اليونانية أو السريانية إلى العربية صعوبات جمة . كان الترجم الأول حتى المتأخر عن بن اسحاق ( في النصف الثاني من القرن التاسع ) يضطرون إلى اشتغال الفاضل الجديدة للاعراب عن أفكار لم يسبق التعبير عنها من قبل في لغتهم . كان المترجم اذا عالج مثلاً أفلاطون أو أرسطو أو أقليدس او أرخميدس او أبيراط او جالينوس ازمه أن يجد مصطلحات جديدة وهو اما أن يلجا إلى تعبير مسهب واما أن يكتب اللفظ اليوناني بالخط العربي لدى التعدد . ولكن واهما للطوابع العجيبة في اللغة العربية اذ يسرت نسبياً - كما اشرت اتفاً - اشتغال سلاسل لا تنتهي من الألفاظ العربية الجديدة المتازة تتعدد من أسماء قديمة ومع ان هذه الألفاظ لم ترد في القرآن ولا في الحديث فانها توأم روح اللغة حتى ليصعب احياناً ادراك جدتها . ويميل الظن بالمرء الى أن هذه الألفاظ كانت قديمة بقدم اللغة نفسها انهالم تكون مستعملة من قبل ولكنها كانت موجودة بالقوة (٤٤) .

وتمت معظم الترجمات عن اليونانية مباشرة أو من خلال الترجمات السريانية، وكذلك تم بعض النقل عن اللغة السنسكريتية وبما جرى أيضاً عن لغات شرقية أخرى . ان معرفتنا باللغة السنسكريتية وببعض الاقتباسات الشرقيّة لا تزال ناقصة لأن الباحثين الذين يتقنون كلّاً من العربية والسنسكريتية ( والفارسية والصينية وغيرهما ) هم قلة . وهذا يبرز جانباً آخر من العبرية العربية ومن ابتكارها . اذ لم يكتف العرب بالاصادر اليونانية ( بل أشك في أنهم أدركوا تفوقها الفامر منذ البداية ) وانما كانوا ظباء لكنه ينهلوا من كل مورد . ثم لم يلبثوا أن شرعوا يتمثلون هذه المعرفة ويعولونها إلى شيء عجيد، ويجنون منها ثماراً جديدة .

وأعظم ما ابتدعه العرب في الرياضيات والفلك كان : علم الحساب الجديد . وعلم المثلثات الجديد . ومما يجدر التنويه به انه كان لكل من هذين العلمين أساس مزدوج : سنسكريتي ويوناني . وكذلك الاقتباسات الطبية من الهند واليونان قد ذكرها علي بن ربن الطبرى (٤٥) ( الذي عاش في النصف الأول من القرن التاسع ) في كتابه : فردوس الحكم . وبعد بضعة قرون يوسع رشيد الدين ( الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع عشر ) ميدان الاقتباس حتى الصين مع أنه كتب بالفارسية أكثر مما كتب بالعربية . أولئك الذين يجحدون ما ثر العرب ويبخسونها حقها يعترضون مرة ثانية فيدعون أن الاقتباس من مصادر متعددة لا يفضل كثيراً الاقتباس من مصدر واحد . لا جرم ان هذا الاسلوب في الجداول مضلل كل التضليل ولا سيما اذا كان البحث في الرياضيات .

في كلتا الحالتين الآفتين لم ينسخ الرياضيون العرب الأصول اليونانية والسسكريتية نسخاً فذلك ما كان ليجدهم نفعاً ، وانما أتوا بهذه الأصول جميعاً وألقوها الأفكار اليونانية بالأفكار الهندية . وإذا لم تكن هذه ابتكارات فليس في العلم اذن من ابتكار . ان الابتكار العلمي هو ببساطة جمع خيوط متفرقة وحوكمها وحبكها نسيجاً جديداً ولا اختزانع من العدم . وقد يعترض معتبر ان العلماء العرب لم يفهموا كشوفهم تمام الفهم . فهم امثاله ، كما

عرضت (٤٦) ، لم يستعملوا الأرقام الهندية (العربية) في عدة مناسبات كان يمكن فيها أن تندو هذه الأرقام بالفة الفائدة كما في الجداول الفلكية والجغرافية مثلاً ولكن ما يثير ذلك ؟ ان نتائج الكشف العلمي ، اذا كان قيماً حقاً ، تكون على نحو من التنوع وبعد المدى بحيث لا يستطيع رجل العلم مهما عظمت عبقريته أن يفهم تماماً ما هو صانعه . وإن الأفكار العميقة لا تؤتي ثمارها غالباً إلا على أيدي رجال آخرين أقل شأناً ولكنهم أكثر خبرة في ميادين التطبيق . على ذلك الفرار كانت أفكار فارادي Faraday التي استثمرها زينوب غرام Zenobe Gramme وكذلك آراء كليرك ماكسويل Clerk Maxwell فقد أينعت عند ماركوني Marconi .

ولنرجع إلى العراق في العصور الوسطى: إن تفرد العلم العربي وخصبه إنما يكمنان في كون هذا العلم قد جمع العناصر اليونانية والشرقية وأبدع منها تركيباً جديداً أو جعل مثل هذا الابداع ممكناً في المستقبل . كان يجوز أن ينتقل العلم اليوناني إلى الغرب اللاتيني بطريقة أبسط لو لم تكن المسيحية الكاثوليكية منفصلة تماماً عن المسيحية الأرثوذكسية بجدار من التعصب ومن الارتباط والضيق . وبسبب وجود هذا الجدار وجوداً مؤسفاً لم يكن ثمة سبيل للاتصال بين العلم اليوناني الغابر والعلم اللاتيني المتأخر إلا بأن يعرج ذلك السبيل على العرب . وإذا نظرنا إلى ذلك من وجهة تكامل الإنسانية على أنها كل مشتبك لاحت لنا الحضارة العربية الإسلامية ذات أهمية قصوى لأنها تقيم الصلة الرئيسية بين الشرق الأدنى والغرب كما تقيم مثل هذه الصلة بين الشرق الأوسط وأسية البوذية .

وهكذا استقام البرهان على المكانة العظمى التي للشرق الأوسط من حيث هو مهد الثقافة الغربية . ولكن حب الحقيقة يلزمانا أن ندخل قيداً أو نقدم اعتراضاً كما يقول المحامون . إن الحضارة العربية التي كانت الحضارة الرائدة من القرن التاسع إلى القرن العادى عشر والتي بقيت ذات أهمية بالغة لفترة تمتد ستة قرون أيضاً ( وليست ستة القرون بالمدة الضئيلة ) قد برزت في ذلك المهد . ليس في ذلك من ريب . بيد أن الفتوحات الإسلامية جعلتها تمتد شرقاً إلى الهند وأسية الوسطى حتى الصين ، وغرباً إلى إسبانيا ومراكب أى إلى آخر حدود العالم إذ ذاك . فلو سميّناها حضارة الشرق الأوسط فحسب لبدت التسمية غريبة بعض الشيء لأن تلك الحضارة امتدت في العصور الوسطى من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى ولا تنسوا بأنه كان لهذين المصطلحين قيمة مطلقة قبل كولومبس . وفي القرن العاشر للميلاد أصبحت إسبانيا ومراكب أى المغرب الأقصى مركزين أصيلين للحضارة العربية ، وبتعبير آخر أن جزءاً أساسياً مما ندعوه بالشرق الأوسط كان إذ ذاك في المغرب الأقصى أى في أقصى الغرب تماماً ! وعلى هذا يبدو لفظ الشرق الأوسط تعبيراً مضللاً . فنحن دائماً شعوب شرقية بالنسبة لغيرنا الغربيين وغربيون بالنسبة للشعوب التي تسكن في الشرق منا (٤٧) ولكننا قبل هذا التعبير كما نقبل كلمات أخرى كثيرة ليست إلا بقايا من الجاهلية الخالية .

لقد بلغت الفلسفة والحكمة العريبتان النزرة بفضل رجلين من المغرب الأقصى . ومن غريب الاتفاق انهما ولدا في غضون سنين متقاربة وفي مدينة واحدة وهي قرطبة التي كانت قد غدت قبل مولدهما بقليل ألمع مدينة في غربى أوروبية والتي كانت المنافسة الغربية لبغداد(٤٨) . ولد ابن رشد في قرطبة عام ١١٢٦ م وولد ابن ميمون بعد ذلك بتسعة أعوام في المدينة ذاتها . ومع ان ابن ميمون قد اضطر أن يرحل الى المشرق بعد ثلاثين سنة من مولده ( سنة ١١٦٥ م ) وانه كتب أكثر مؤلفاته في القاهرة فان هذا لا يبدل شيئاً منحقيقة أمره وهي انه كان مغرياً كابن رشد على ان ابن ميمون كان يهودياً ولم يكن مسلماً(٤٩) .

لقد كانت العربية حقاً في ابان العصور الوسطى أكبر لغة عرفت حتى ذلك الحين انتشاراً اذ كان يتداولها بالكلام والكتابة أمم كثيرة في الشرق والغرب ثم زيادة على ذلك وعلى خلاف اللاتينية كانت تتداولها أيضاً شعوب تدين بأديان متعددة(٥٠) . لنعد الى ابن رشد وابن ميمون . هذان مسلم ويهودي أتى على أعقابهما بعد قرن مسيحي هو القديس توomas الاكويوني . وهؤلاء الرجال الثلاثة يلخصون فلسفة العصر الوسيط . هؤلاء الرجال الثلاثة العظام ، وقد ولدوا جميعاً في الجنوب الغربي من أوروبا ، يمثلون الأديان الثلاثة البارزة واللغتين الرئيتين في العصور الوسطى . ومن اليسيير أن نورد أسماء مغاربيين آخرين ليسوا قليلاً زادوا جلال الحضارة العربية ولكن حسبنا هذا العلمان .

سجلت جهود ابن رشد وابن ميمون بلوغ الحضارة العربية أعلى منازلها ثم بدأت تنحدر باستمرار بعد القرن الثاني عشر . على أن تلك الحضارة ظلت مؤشرة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر وان كانت في سبيلها الى الانقطاع . وكان من الشاق أن يدرك المشرق الاسلامي ذلك بسبب خياله ذاتية تزداد كلما تضاءلت الاعمال الجليلة ( وانها لقاعدة عامة تنطبق على الشعوب كما تنطبق على الأفراد ) ، وكان الغرب أقل ادراكاً كذلك لهذا التدهور فقد كانت مكانة العرب تزداد هناك في حين تتناقص جدارتهم بهذه المكانة(٥١) . وهذه أيضاً قاعدة أخرى من قواعد الحياة . هنالك انجذاب أو تخلف دائم بين أعمال الانسان ( أو الأمة ) وبين الشهرة الدائمة ، تأتي الشهرة متأخرة وقد تتأخر حيناً بعد اذ تتوقف الاعمال المجيدة . وكيف لا يكون ذلك ؟ والزمان لامندوحة عنه في المأثر لكي تناح معرفتها فيه وتقدر حق قدرها .

ان الاعمال المجيدة التي حققتها الشعوب الناطقة بالعربية بين القرنين التاسع والثاني عشر كانت عظيمة حتى انها أغرت افهاماً . وكذلك كان انهيار الاسلام والعرب مذهلاً بسرعته وشموله مثلما كان فهو ضدهما . ولن يبرح الباحثون الى الأبد يحاولون تفسير هذا الانهيار كما يحاولون تفسير انقطاع روما وسقوطها . وأمثال هذه المسائل غایة في التعقيد و تستحيل الاجابة عنها ببساطة .

كثيراً ما قبل ان انحطاط الاسلام الروحي عجل به ضياع سلطانهم السياسي وفي هذا القول بعض الحق ولكن ينبغي الا نبالغ فيه(٥٢) فهو ليس الا جزءاً ضئيلاً من الجواب المشتبك .

الا ترى أن سلطان الدولة العثمانية بقي كبيراً عدة قرون ومع ذلك لم تبلغ الحضارة في تركية الشأو الذي بلفته في عدة بلاد أوروبية كانت أضعف منها جداً وفي ذعر قاتل ازاءها . لقد كان ضعف الایمان الاسلامي عاملاً في دعم سلطان العثمانيين ومع ذلك فانه قوض العلم العثماني(٥٣) . ان الأسباب الحقيقة لكل انحطاط هي دائماً أسباب داخلية لخارجية . اذا اقتلت العاصفة بعض الأشجار لا تلام العاصفة وانما تلام الأشجار لخواصها .

لم تزعزع النكسات السياسية ثقة المسلمين بأنفسهم بل على العكس زادت في الواقع من خيلائهم ولكن في طريق خاطئ . فقد غداً البحث العلمي مصدوفاً عنه وليس له حافر بسبب جهل علماء الدين المسلمين واكتفائهم بما آمروا به . وتوقف التقدم العلمي بسبب تعنتهم وأظلام آفاقهم . وقد استمر (العلماء) يقبلون القصة الخيالية التي كتبها علي ابن أبي العزم ابن النفيس(٥٤) بعنوان (فاضل بن ناطق) بمعناها الظاهري . وهي محاكاً لعنيمة بن يقطان التي كتبها ابن طفيل (المتوفى ١١٨٦) قصته الحكيمية حين كان الاسلام لا يزال في أوجه أما ابن النفيس الذي مات بعد قرن فانه كان مثلاً لطليع الانهيار حين قلت الماشي وطما الغور . وكانت نهاية التي قصدتها ابن النفيس في كتابه هي ان يبين أن تسلسل الحوادث في الماضي الاسلامي جرى على نهج لا يمكن تجنبه حتى انه كان يمكن اعادة بنائه خيالاً بصورة قبلية . كان وهمه من نوع وهم مسيحي يدعى يوسيبيوس(٥٥) آمن أن التفوق المسيحي راجع إلى العناية الإلهية وإلى فضيلة ذاتية فيه . وكذلك حسبَ ابن النفيس أن الأعمال السياسية والعسكرية المذهلة التي قام بها الشعب المسلم كانت مجرد تحقيق لما خطته العناية الإلهية(٥٦) .

وقد توالت البرهان على ان الانهيار الروحي لا شأن له بالهزائم العسكرية ولا بالکوارث السياسية . ففي هولندا مثلاً لم تكن السلطة المادية الا ظلاً للسلطة التي نعمت بها في القرن السابع عشر ومع ذلك فقد ظلت حتى الآن بلداً من البلدان البارزة في ميداني الفن والعلم . وهناك برهانات مشابهة قدمتها أمم أخرى كبلجيكا وسويسرا والبلاد الاسكندنافية فهي على ضالة قوتها تقود العالم في شتى الأمور الروحية وهي مراكز ثقافية من الدرجة الأولى .

كلاً لم يكن انحطاط الاسلام بسبب نقص القوة المادية والتفوق السياسي وضياعها بحسب ان القوة الروحية فيه قد تداعت . ان الشعور بالعزّة الذي تضرمه فيما ذكرى أعمال أجدادنا المجيدة هو شعور خطير لا سيما اذا رافقه تفاسع في جهودنا . فالشعب الذي يقوم بالأعمال المظام لا يتبعج بها اذ ليس لديه وقت لذلك وهو على تحقيق أهدافه أشد اكباباً منه على استجداء الاطراء من الشعوب الأخرى . وعندما يهرم أفراده وقد أنجزوا ما كان عليهم عمله يغاليون في تردید ذكرياتهم وتمجيد أنفسهم ان هذا ليس أمراً ذا بال في حياة الأفراد القصيرة اذ لا يأس من أن يسمح لهم بوقت قصير يستمتعون فيه بدفع الشمس قبل أن يرحلوا ولكنـه - بخلاف ذلكـ أمر على جانب كبير من الخطورة في حياة الأمم لأنها اذا بدأت تستريح الى مجدها وتتباهى بماضيهادون أن تمشي قدماً فانها في طريق الانحطاط

تسير وهي في سبيل الضياع . انها تستمر في وجودها لأن القاعدة هي ان الأمم لا تموت ولكن حياتها محكوم عليها بالتفاهة . وهذا تماماً ما حدث للإسلام : توقف الجهد الخلاق ورافقه ازدياد التفاخر وازدراء الآخرين ، وصار النور الباطن كابياً حتى ان ايمانهم أضاع قوته وصفاءه . وحلت الغرافة محل الدين والتعصب مكان الاعتقاد والحسد والكراهة بدل المحبة .

وي ينبغي أن نسحب بعض الشيء في الكلام على ذلك العامل الرئيسي في الانحطاط ألا وهو الغرافة لأنها أكثر المؤامل مخاللة ، ونماؤها ليس سبباً رئيسياً للانحطاط وحسب وإنما هو أكثر أعراضه وضوها . اذا نحن شهدناه يجب أن نحترس ونبداً بحماية أنفسنا . وما كان يمكنه الناس في العصور الوسطى فهم هذا كما نستطيع اليوم . ان الغرافة تروق داماً للشعوب الجاهلة التي تريدها أجوبة عن أسئلتها أجوبة يكون العراءون على أتم أبهة التقديمها . هكذا كانت الحال وأبداً ستكون : عندما تضعف الجهات العلمية تختلط الغرافة العلم نفسه فيكون هذا أمراً مشؤوماً . لقد شرفت المؤلفات العلمية العربية بعديد من الروائع ثم بدأت تنحدر بفيس من المؤلفات التجريبية والسيميائية<sup>(٥٨)</sup> والحساوية . ويبدو تسرب فضول السحر إلى الرياضيات على أتم شكل في كتاب لمؤلف روحاني من العزائر يدعى أحمد بن علي البوسي ، عاش في النصف الأول من القرن الثالث عشر . ولكن أفضل شرح للموضوع بكلمه نجده عند رجل من أبرز مفكري العصور الوسطى في الشرق والغرب وهو التونسي ابن خلدون (عاش في النصف الثاني من القرن الرابع عشر)<sup>(٥٩)</sup> . تأملوا مثلاً ما كتبه عن الهندسة :

« واعلم أن الهندسة تفيد أصحابها اضاءة في عقله واستقامرة في فكره لأن براهينها كلها بينة الانتظام جلية الترتيب لا يكاد الفلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ وينشأ أصحابها عقل على ذلك المهيغ ، وقد زعموا أنه كان مكتوباً على باب أفلاطون من لم يكن مهندساً فلا يدخلن منزلتنا . وكان شيئاً يخوننا رحهم الله يقولون ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الأقدار وينقيه من الأوضار والأدران وإنما ذلك لما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه »<sup>(٦٠)</sup> .

ان بيانه هذا على ما فيه من أطناب جديرين بالاعجاب أصاب فيه المعن وطبق المفصل . فالغرافات في الفكر الإنساني كالقذارة والطفيليات في الجسم معدمة خزي مرير . ويا ويع الشعوب التي تبتلى بالغرافات والطفيليات فهي لا تدرك خزيها وإنما تميل إلى الاستزادة منه وتفرق أنفسها في الحقارة يوماً بعد يوم .

من المناسب أن ننعم النظر في هذا الأمر كما يجدر بنا أن نتسماً إزاء تلك الغرافات التي عملت في تقويض الحضارة العربية لأن حضارتنا ليست خالية منها تماماً . فالمتجمرون وقراء الكف والراجمون بالغيب وغيرهم من العرافين يفلجون في مدننا الصلفة . والأعمدة التجريبية في صحفنا تعلن نقص مبادئ أصحاب الصحف كما تعلن فسادهم<sup>(٦١)</sup> .

ان مناقشة ابن خلدون للخرافات المختلفة عند المسلمين هو بحث فريد في مؤلفات العصور الوسطى مع أنه على حصافته لم يستطع أن يتحمّل تصديق بعضها . وتفاقم الأمر سوءاً بعد عصره اذ حصل اذ ذاك ما يشبه ما ندعوه اليوم بالتفاعل المتسلسل : فانحطاط الاسلام الروحي أشرع الباب الى ازدياد الغرافات . وقد حطم جهل رجال الدين(٦٢) وتعصبهم سدود العقل ، وأنامت الغرافات الجديدة عند الشعب سرعة التصديق وقلة المحاكمة والغفلة والتعصب ، وأفضت الغرافة الى الغرافة وهكذا دواليك . وتفاقمت خطورة هذه الحال لأنه في الوقت الذي بدأ تهزل فيه الجهد العربي ويصبح الشعب العربي فريسة سائفة للخرافات المتزايدة كان الشعب الغربي (اللاتيني) يكشف عن سر جديد لمعرفة لا تنتهي وحياة زاخرة ، تلك هي الطريقة التجريبية التي أنسأت حضارة جديدة في بضعة قرون وبعثت فوق ذلك ثورة في العالم كله في العالم الروحي وفي العالم المادي معاً(٦٣) . ولم يكن للشعب الناطق باللغة العربية نصيب في ذلك . بينما كانت الامم الغربية تتقدم بخطى حبيبة جداً كان العرب مسمرين في أمكتتهم، وهكذا بدأوا يتراجون بلا رجاء . فالاسلام الذي بارتقاء العظيم رفع العرب الى أسمى الذرى عاد فألقى بهم لما تداعى في عميق الهاوية .

ولكن هذا ليس نهاية على أية حال ، فالامور في الواقع تتغير بسرعة . ولقد قادت شعوب الشرق الأوسط العالم مدى حقبتين طويلتين طوال ألفي سنة على الأقل قبل اليونان ثم كرة أخرى في العصور الوسطى طوال أربعة قرون أو ما يزيد على ذلك . فليس ما يمنعها من أن تقوده مرة جديدة في العاجل أو في الآتي البعيد .

كان سبب قيادتهم في الحقبة الأولى عبقريتهم الخلاقة؛ كانوا البناء الأول والكتاب الأول ، أفاقوا قبل أن يفique سائر العالم . أما الحقبة الثانية فكانت أقصر من الأولى وأقل أصالة الا أنها تظل مع ذلك خصيبة غاية الخصب . لقد سبقوا بحضارتهم القديمة اليونان في مضمار المآثر العلمية أو فتحوا السبيل لهذه المآثر فجعلوها ممكناً ثم تغير الأمر فأصبحت الشعوب الناطقة باللغة العربية ورثة العلم اليوناني ونقلته الى الغرب . ولم يكونوا نقلة لا نظر لهم ولا تأثير بل على العكس زادوا التراث اليوناني وأورثوا خلفاءهم اللاتينيين تراثاً أغنى . ولا يرجع رقيهم في هذه المرة الى أصالتهم الخلاقة بقدر ما يرجع الى اتقانهم وحماستهم الفذة . لقد أدركوا اذ ذاك ما كانوا قد نسوا من أن المعرفة يجب أن تشاد على قواعد راسخة و اذا لم تضرب جذور الحضارة الى عمق كاف فان هذه الحضارة سوف تذوي وتموت . وكانت جذورهم الدينية وافية العمق وكذلك كانت جذورهم العلمية ، لفترة على الأقل ، الجذور اليونانية القديمة . ادرك قادتهم ادراكاً جلياً أن المرء اذا شاء أن يحصل على المعرفة العلمية ينبغي أن يبدأ من جذور أول المبادئ لا من قمة آخر التطبيقات . يسهل قطعاً سار الناضجة من أعلى الشجر حتى الأبله يستطيع أن يفعل ذلك ولكن الأصعب منه غرس الاشجار السليمية التي تعطي أغزر الشمار في مواسمها . هذا هو الدرس الذي يجب أن يتعلمه اليوم شعب الشرق الأوسط مرة ثانية . لا طريق الى العلم قصير . من اليسير تعليم إيكانيك ولا صعوبة بالغة في تدريب المهندسين ، ولكن اعداد رجل العلم عملية شاقة وطويلة . ان درب العلم صعب لا راحة فيه ولا نهاية له .

ويقتضي البتكار في العلم والمعرفة من المرع عكوف سنين طويلة ومتواصلة ان لم يستنزف عمره كله . بل ان الحياة ذاتها جد قصيرة وكل رجل علم يورث من يأتي بعده مسائل غير محلولة . ليس من سبب يعوق عرب اليوم على الاطلاق عن أن يضاوها أسلافهم ويتبواوا مركز القيادة مرة جديدة . حقاً ليس هذاسهلاً وهو يزداد صعوبة كل يوم ولكنه أمر ممكناً .

لقد تمت انطلاقه جيدة في المضمار الديني دعا لها الشیخ محمد عبد(٦٤) فراق الجو الاسلامي . وكذلك أخذ يهود الشرق الأوسط ومسيحیوه ينهجون نهجاً أفضل من قبل وارتفاع مستوى التعليم في عدة بلاد ارتفاعاً ملحوظاً . وكان الفضل في جزء جوهرى من هذه النهضة العلمية يعود للجهود الأمريكية وخاصة الجامعة الأمريكية ببيروت التي كانت منبت الرجال الصالحين والنبع الدائم للارادة الطيبة(٦٥) فهذه الجامعة والمعاهد الأخرى في القاهرة واستانبول وبغداد لم تقدم فقط هباتها الفائقة بأكرم روح وإنما خلقت تنافساً ودياً واضطربت المدارس الأخرى أن تعشن منهاجها . ولا يستطيع المرء أن يفني المشرفين على هذه المعاهد ولا من يقومون بادارتها حقوقهم من الشكر لكل ما أولاوه من هبات مباشرة وغير مباشرة . ثم ان الاستقلال السياسي قد أعلى المطامح الروحية في كل بلد ولا سبب يقف حائلاً دون تحقق هذه المطامح ما لبثت مدعاومة بالأعمال والتضحيات المتلاحقة لا بالكلام وحده . ثمة عديد من المسائل ما بربحت بلا حلول ولكن حيث توجد الارادة يوجد السبيل الى الحل وإن كان سبيلاً طويلاً يحتاج الى كثير من الصبر . وأهم ما في الأمر ادراك أن الشاطع العلمي شديد الصعوبة ، وإن على المرء أن يشمر عن ساعده الجد لبذل جهود هائلة . فالذين يضلهم الظن ان الأمر سهل وإن بوسفهم مراوغة هذه الصعوبات هم أناس قدر لهم الاخفاق اذا كانت الجهود التافهة تضيع عبثاً .

ليست المدنية مرضًا فيعالج ، إنها معركة نضال مستمر . هي معركة ليست مضمونة العاقبة . فحريتنا ومعرفتنا وكل ما في حياتنا نعم هي دائماً رهن الاختبار . ينبغي أن نواصل البرهان على جدارتنا بتلك القيم والفقدناها . ان تراخينا زلت أقدامنا . لا نهاية لكفاح الفلم والخطأ والقبح والفقير .

أنا لا أزال أؤمن بالتقدم ايمن سينيكالا ايمن انصاف المتعلمين الذين يقيسونه بالفاظ التقدم المادي والرفاهية . ان التقدم المادي المحسن مهلك بل انه ليس تقدماً على الاطلاق وإنما هو نكوص حقيقي . والتقدم الصحيح الذي معناه اصلاح الواقع للحياة لا يمكن أن يتخد له أساساً الشفف بالآلات والعديد بيل يجب أن يقوم على الدين والفن وفوق كل شيء على العلم ، على العلم العالص ، وعلى حب الله وحب الحقيقة وحب الجمال وحب العدالة .

ويتضح ذلك اتضاحاً كافياً حين ننظر الى الوراء ، من هم عظماء الرجال في الغابر ؟ من هم أعلام المصلحين عندنا ؟ من ندين بنعم حياتنا ومسراتها ؟ كانوا رجالاً من أمثال أفلاطون وارسطو واقليدس وأرخميدس في اليونان القديمة وأمثال الفارابي وابن سينا

وابن الهيثم والبورواني والغزالى وابن رشد وابن ميمون وأبي الفداء وابن خلدون في العصور الوسطى . لم يعش أولئك الرجال في معزل عن الحياة الاجتماعية ، وكان الحكم والمفسرون في أيامهم أعظم شهرة منهم بيد أن الحقيقة تجلت تسرّعاً وها نحن أولاً لاذكر من الرجال إلا هؤلاء وأمثالهم ، أما الملوك والسلطانين والوزراء فقد غدوا نسياناً منسياً . لقد كان الحكماء وموظفوهم يعملون ليومهم أو لعدهم أما العلماء ورجال المعرفة فقد كانوا يعملون للخلود . وإننا لنشعر شعوراً عميقاً بما ندين به لهم ونقر بفضلهم علينا . والذي يتضح حين ننظر إلى الوراء ينبغي أن يتضح مثله تماماً حين ننظر إلى الأمام فيهدي خطاناً إلى المستقبل .

ثانياً ما يتحدث الناس عن التفاوت بين الشرق والغرب ، هذا التفاوت قائماً إلا أنه أقل أهمية جداً من التفاوت بين المادة والنفعة من جهة وبين المثالية من جهة أخرى . فهذا التفاوت الثاني مستقل عن الزمان والمكان . ولقد وجد ويمكن أن يوجد في كل زمان ومكان . لعل بعض الناس يريدون أن نعتقد أن سكان الشرق الأوسط مثاليون وأن سكان الغرب ماديون وذلك يفسر لم أثرى الغربيون وافتقر الشرقيون . بيد أن هذا بعيد عن الحقيقة . ففي الغرب فقر كثير وفي الشرق غنى واسع . ولكن ربما كان التباين على وجه العموم بين الفن والفنون في الشرق أعظم منه في الغرب ، وإن أثراء الغرب عامة أكثر . لكنه ونحبنا للخير وأعظم حكمته في احسانه من أثرياء الشرق الذين يتسم سخاؤهم باللباهة والتلفاح .

ووضع أن الشرق الأوسط كان مهدأً لديانتنا ومثلتنا العلياً في العلم والفن فإنه من الخطأ أن يقول إنه اليوم أشد مثالية من الغرب . يصبح هنا القول تعلقاً أكثر منه صدقاً ومثل هذا الملق أذيته أشد من نفعه . فيرأيي أن الشرقيين لا يختلفون في الاعومن عن أولئك الغربيين . ففي كل بلد يجد المراتجات السلم تامة . من أوج الولاية إلى إلى حضيض الفساد . ندر من هو صالح جداً وكذلك ندر من هو فاسد حقاً . والفالبية العظمى ضحايا الظروف والملابسات ، قد تسمى بهم العدالة واللطف سمواً لا يضاهى كما قد يطروح بيسير بهم البؤس والشر والكذب . تبقى المسالة الرئيسية في عالم اليوم (بيل في كل زمان) مسألة رفع المستوى الروحي للجماهير (٦٦) فإذا أخذتنا في رفع هذا المستوى انقلبت كل مزايا مدنينا المادية عليه ، فحطت منه وحطمته . إذا جعلتنا قيمنا الأساسية العدالة والاحسان والحقيقة نجونا ، وإذا جعلنا قيمنا الأساسية الراحة والمال حاقد علينا .

ليست المدينة مرضًا ولكن قد يسري المرض والعفونة التي قلوب الفاسدين من الناس . ليست المدينة شرقية ولا غربية . لم تلق عصا التسيار في واشنطن ولا قبلها في بغداد ، إنما تستطيع أن تتوطد حيثما وحينما يوجد الصالعون وتوجد الصالعات من الناس الذين يدركون معناها ، ويعرفون كيف يمارسونها ولا يسيرون تلك الممارسة . إن الشرق الأوسط (إذا لزم أن نستعمل هذا المصطلح) كان مهد حضارتنا وهو الذي هيأ لهذا أسباب النجاة إبان العصور الوسطى حين كان ستار العددي يفصّم العالم شطرين . نرغون إلى ماضيه بعرفان الجميل وترنو إلى مستقبله بالأمل الواعق .

## الحواشي :

- ١ - Hesiod : *The works and days* (lines 109 - 201)
- ٢ - أسماء ستيفن Stevin اسماء غرباً أو Eruditum Seculum قرن التبعـر . Sarton : « Simon Stevin of Bruges (*Isis* 21, 241-303, 1954, p. 259)
- ٣ - عبر سينيكا (في النصف الثاني من القرن الأول) عن ذلك مرتين على الأقل مرة في رسالة الى لوسيليوس (الرسالة ٦٤ المذكورة في المقدمة ٢٠ ، ٤٨٤) ومرة أخرى في مؤلفه *Natural questions* (٧ : ٢٥) . كذلك عبر توسيديدس *Thucydides* (القرن الخامس قبل الميلاد) في مطلع كتابه « *التاريخ* » عن بعض ايمانه بالتقدم ، الا انه كان أقل بوضحاً . وان ايمان سينيكا بالتقدم العلمي يتلامس بعض الشيء في افكار برنارد الشارترى *Bernard of Chartres* (في النصف الأول من القرن الثاني عشر) حين قال : « نحن بالنسبة الى الاقميـن اقزام تجلس على اكتاف العمالقة .. وقد ذهب هذا القول مثلاً . وللحصول على مراجع أخرى انظر « *المقدمة* » ٣ ، ٨٧٠ ) . Ananda K. Coomaraswamy
- ٤ - عبر عن آراء مماثلة ولكن بقوـة وخشونة في عصر متاخر ، اناندا ك. كوماراسومي (New York ١٩٤٧ - ١٨٧٧) مثلاً في مجموعة دراساته المسماة « *Am I my brother's Keeper* » (نيويورك ١٩٤٧) . كان صديقـي كوماراسومي مبالغاً ومتصلباً ، ولكن ملاحظاته مع ذلك تستحق التأمل وكتبه مترعة بالشواهد والمراجع . ★ (هذا وعنوان كتابه الانف جملة مأخوذة من سفر التكوين ٤/٩ وهو جواب قايين للرب لما سـأله أين هـايـل فقال لا أعلم أحـارـس أنا لـاخـي . - المترجمة ) .
- ٥ - تأمل مثلاً التقارير المتواضـعة التي قدمـها عـلمـان تـركـاـعـقـ الأـثـرـ في تـطـورـ الـعـلـمـ الـعـدـيـثـ ماـكـسـ بلـنكـ (Introd 3, p.v.) Albert Einstein في Max Planck والبرت انشتاين (Isis 40, 66-69) في
- ٦ - لعل العـلـمـ قدـ نـمـاـ مـبـكـراـ في مـنـاطـقـ أـخـرىـ كـاـيـرـاـنـ وـالـهـنـدـ وـالـصـينـ حـتـىـ الـهـنـدـ الصـيـنـيـةـ الاـ أـنـ مـعـلـومـاتـناـ عنـ ذـلـكـ مـبـهـمـةـ وـمـشـبـهـ ، وـعـلـىـ آـيـةـ حـالـ لمـ يـكـنـ تـأـيـرـ تـلـكـ الـبـلـادـ فيـ حـضـارـتـاـ مـبـاشـرـ كـائـنـ الـشـرـقـ الـأـوـسـطـ .
- ٧ - حـفـظـتـ صـحـافـ منـ الـبـرـيـ وـمـجـلـدـاتـ كـامـلـةـ مـنـ بـكـيـاتـ كـبـيرـةـ بـسـبـبـ جـفـافـ الـاقـلـيمـ فـيـ مـصـرـ وـلـمـ يـكـنـ بـالـمـكـانـ الـعـفـاظـ عـلـيـهـ فـيـ بـلـادـ مـاـ بـيـنـ النـهـرـينـ . اـمـاـ الـواـحـ الفـخارـ فـيـمـكـنـ انـ تـبـقـيـ فـيـ كـلـ مـكـانـ وـفـيـ كـلـ طـرقـ الاـ اـذـاـ اـتـلـفـتـ عـدـماـ . وـثـمـ وـصـفـ رـائـعـ لـتـلـكـ الـلـوـاـحـ كـتـبـهـ اـدـوارـ شـبـيراـ (Chicago ١٩٣٣ - ١٨٨٥) فيـ كـتـابـهـ « *They wrote on Clay* » . Edward Chiera « They wrote on Clay » . (Chicago 1938).
- ٨ - هذه الفكرة وسعها سارتون في مقاله له : « *Agrippa, Fontana and Pigafetta. The Erection of the Vatican Obelisk in 1586* » (Archives internationales d'histoire des Sciences N° 8, 1949, P. 827-54, 14 figs).
- ٩ - للاماـمـ بـعـلـومـ عـامـةـ تـتـعـلـقـ بـالـعـصـرـ ماـ قـبـلـ الـهـيـلـيـنـيـ رـاجـعـ : OTTO Neugebauer : *Vorgriechische Mathematik* (Berlin 1934, Isis 24, 151-53).  
Mathematische Keilschrifttexte (3 Vols. Berlin 1935-37; Isis 26, 63-81, 28, 490-91).  
Mathematical Cuneiform texts (New Haven 1943, Isis 37, 96-97, 231).  
François Thureau Dangin : *textes mathématiques Babyloniens* (Leiden 1938, Isis 31, 398-425).  
Arnold Buffum Chace : *The Rhind Mathematical Papyrus* (Oberlin 1927-29; Isis 14, 251-55).  
Georges Contenau : *La Medicine en Assyrie et en Babylonie* (Paris, 1938; Isis 31, 99-101).  
James Henry Breasted : *The Edwin Smith Surgical Papyrus* (Chicago 1930, Isis 15, 355-67).  
B. Ebbell : *The Papyrus Ebers* (Copenhagen 1937; Isis 38, 126-31).

هذه هي العـاـوـيـنـ الـهـارـزـ فقطـ وـيمـكـنـ الـحـصـولـ عـلـىـ عـاـوـيـنـ أـخـرىـ كـثـيرـ بـمـرـاجـعـةـ : « *مـرـاجـعـ الـكـتبـ الـنـقـديةـ* فيـ مجلـةـ اـيزـيسـ . Critical Bibliographies of Isis .

اـذـ كـانـ الـهـدـفـ مـنـ هـذـهـ الـمـرـاجـعـ اـقـنـاعـ الـقـارـئـ اـنـ مـاـ وـرـدـ فـيـ النـصـ اـنـماـ يـعـتـمـدـ عـلـىـ مـعـلـومـاتـ وـاسـعـةـ . وـالـحـقـ اـنـ مـعـلـومـاتـناـ عـنـ الـعـلـمـ فـيـ الـعـصـرـ ماـ قـبـلـ الـهـيـلـيـنـيـ وـافـرـ وـلـكـ مـعـرـفـتـاـ بـكـيـفـيـةـ اـنـتـقـالـ هـذـاـ الـعـلـمـ الـىـ الـيـونـانـ مـجـزاـةـ جـداـ وـنـاقـصـةـ .

Jamieson B. Hurry : *Imhotep, the Vizier and Physician of King Zoser* (2ed London 1928; —).  
*Isis* 13, 373-75 : 14, 226).

مارس امحوتب الطب في مصر في القرن الثلاثين (ق.م) .

## ١١- للاطلاع على التأثيرات الإيرانية

**Joseph Bidez, Franz Cumont, Les Mages Hellenisés : (2 vols. Paris, 1938, Isis 13, 458, 62;**

J. Bidez : *Eos ou Platon et l'orient* (Bruxelles 1945 : Isis 37, 185);

F. Cumont : Lux Perpetua (Paris 1949).

وللاطلاع على التأثيرات المصرية والبابلية انظر العاشرة رقم (٧) وكذلك

### **Robert William Rogers (1864-1930).**

Cuneiform Parallels of Old Testament (New York 1912). T. Eric Peet (1882-1934). Comparative Study of the literatures of Egypt, Palestine and Mesopotamia Egypt's Contribution to the Literature of the Ancient World. (London 1931).

**James Henry Breasted (1865-1935) : The Dawn of Conscience (New York 1933 - Isis 21, 305-16).**

١٢ - لعل قارئ هذه المحاضرة أكثر دراية بالإصلاح الديني منه بسبيل الشناق القديم في الكنيسة والملاحدات التالية قد تساعده . كان سبب الشناق الأول الغلاف في الرأي حول طبيعة المسيح فهو انسان أم الله أم هو من طبيعتين ناسوتية ولاهوتية متحدة في فيه ؟ أهو شخص واحد أم شخصان ؟ وجهة النظر الأرثوذكسيّة ترى لل المسيح طبيعتين الا أنها تعتبره شخصا أو اقتصوا واحدا . أما النسطورية فتدّعى الى أنه ذو طبيعتين وانه شخصان او اقتصوان . وقد حكم على هذه الآراء بالكفر بمجمع افسوس سنة ٤٣٥ . أما القائلون بالطبيعة الواحدة فياخذون الجانب المقابل في العدال ويزعمون بأن المسيح طبيعة واحدة فقط وشخص واحد وقد حكم عليهم بالكفر بمجمع خلقديونية أيضا عام ٤٥١ . راجع كتابي «المقدمة» Introd. اذا شئت التوسع في المعلومات (٣ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٣٥٧ ، ١٠٥٧ ، ١٤٣٠) .

<sup>١٣</sup> - لقد ناقشت هذه المسألة عدة مرات مثلاً عندما بحثت في وحدة بلاد البحر الأبيض المتوسط وفي اختلافها . (Osiris 2, 406-63, 1936; Chiefly, P. 439-41)

١٤- يزيد المؤلف بлагته العظيمة عليه السلام في أحاديشه النبوية والا فان كلامه هذا هو الجهل المطبق بالقرآن الكريم ويشبه في دعوه تلك كلام المشركين قبل خمسة عشر قرنا حين ظنوا القرآن شعرا - المترجمة .

١٥- الزكاة في الإسلام غير الصدقات ويفيد أن المؤلف قد ادّعى عليه هذا الأمر - المترجمة .  
 ١٦- يبي المؤلف هنا قلة دراية بحقيقة الدين لأنه إذا أمن الماء بالوحى، فعنده سبعة لئان نص القرآن الإلهي، ٩٥

المتوار الذي لا ياتيه الباطل وأما الكتب الأخرى فهي التي تناولها التعريف والتحويل . وقد ذكر القرآن أنه جاء مصدقاً للتوراة وللإنجيل يدعم التيم الرقيقة فيهما . هذا ومن المعلوم أن كثيراً من العقائد المسيحية التي تكونت مؤخراً قد سبق إليها القرآن والدين الإسلامي حين وردت في الوحي واستفاد منها الغربيون على طريق الترجمة إلى اللاتينية ولكن لا ينتصر من المؤلف غير المسلم أن يقول غير هذا . - المترجمة .

<sup>١٧</sup> خاتم النبّيin (سورة ٣٣، ٤٠) تغيير حمل اليهود والنصارى على اعتبار الاسلام بدعة لأن ما كان يدعوه تمثيلا للرسالة كان من وجهة نظرهم بالطبع بعد انحرافاً .

وفي كتاب العديث المشهور السمعي (مشكاة المصابيح) Introd. (المقدمة ٣ ، ١٠٦٦) ورد على لسان الرسول ما يفسر  
بانه قبول منه لفكرة الجبل بلادنس \* .

★ نسي المؤلف أن القرآن الكريم أشار إلى طهارة مريم .

<sup>٤٧</sup> - ١٨- فيما يتعلّق بالسلقيين المسلمين راجع (المقدمة ٣ ، ٤٢٢) وانظر كذلك العاشية .

١٩- هذا القول لا يتنافي هو وكون القرآن مشتملاً على عدة كلمات ذات أصل أجنبي . وهذا يبين السيوطي مبكراً حوالي القرن الخامس عشر (١٤٤٥ - ١٥٠٥) وذكره بصورة أكمل أرثوذر جفرى Arthur Jeffery في

The Foreign Vocabulary of the Qur'an (Gaekwad's oriental Series Vol 79, Baroda 1938).

السريانية ، العبرية ، النبطية ، القبطية ، التركية ، الزنجية ، البربرية أما جفري فارجعها الى خمس وخمسين لغة أو لهجة ! ومن الأهمية يمكن أن يظهر في لغة منعزلة اعزل اللغة العربية في القرن السابع كلمات دخلة ولكن لغة شعب متجلو ومتاجر كما كان الشعب العربي لا يمكن أن تكون أبدا لغة منعزلة تماما . فقد كان للعرب تجارة مع السوريين والفرس والآشوريين حتى ان أعظم الناس تفكيراتي الدين كالنبي نفسه وقعت له مناسبات للتتحدث مع أسيحيين واليهود . وتتلاطم الوان التماس هذه في كلمات كثيرة من القرآن تلامعاً خفياً بل يجب أن نعرف بأن الرسول كان عالماً بوجود بعض اللغات المقدسة الأخرى كالعبرية والسريانية والجشية واليونانية .

- ٢٠- نسي المؤلف في العصر الحاضر حالة الأمريكان والإنكليز الذين لا يكادون يعرفون إلا لغتهم - المترجمة .
- ٢١- كلما تكلم المؤلف على الإسلام أبدى زيادة جهل وعلى الأقل نسي كل الغلاف الطويل العريض الذي ثار في تاريخ الكلام حول كلام الله وأفضل أن يرجع إلى بساطة تكتل التوحيد المتداولة بين المسلمين - المترجمة .
- ٢٢- انظر مثلاً مصدر ( س ل م ) . سلم يعني نجا من الخطأ ، سلام : حيا ، سالم : دخل في الإسلام ، أسلم : أذعن ومنها كلمة الإسلام : الأذاعان ، سلام : تقبل ، سلام : صحيف ، سليم : صحيح ، استسلام مصدر التقبيل ، الاستسلام : الانقياد ، مسلم المؤمن بالاسلام ، المستسلم المتقبيل ، مسامل مائل إلى الإسلام وهلم جرا إلى مالا نهاية له تقريباً ، وفق ذلك يجري التصريف على نظام متسق جداً بحيث إذا مررت بالقارئ صيغة جديدة استطاع أن يستتبع بوجه العموم معناها من سياق الكلام . ويُسَعِّ دارسي اللغة العربية أن يفهموا ذلك كدارسي اللغة العربية إلا أن طواعية العربية تفوق جداً طواعية العبرية \*

★ يلاحظ أن المؤلف أخذ كلمة استسلم بمعنى تلقى وتقبّل وهو معنى عامي لا أصل له باللغة العربية . والمعنى الصحيح استسلم بمعنى عائق أو قبّل وتمت معان آخر لاستسلم كاستسلم الزرع اذا خرج سنبه او استسلم الغاف قديمه أي ليتهما . - المترجمة .

٢٣- بالرغم مما يريد أن يؤمن به المسلمين لم يكن الرسول موصوماً عن الخطأ . وفي القرآن جمل متعددة كان يوسع النهاة أن يعتبروها غير صحيحة لو وجدوها في أي كتاب آخر . ومع ذلك لعله من التعسف ومن التحدّق الالحاد على هذه النقطة اذا من السهل أن يجد المرء الواناً من اللحن والمعجمة في أي آثر أدبي رائج . ووجود هذه الأخطاء في الكتب المقدسة لا ينافي كمال الله بل أن تفسيرها أسهل من تسويغ وجود الشر في العالم لأن هذه الكتب المقدسة إنما كتبها ونقلها البشر \*

★ لا ينتظرون من أعيجمي أن يفهم اللغة مثل كبار العلماء الذين لم يكن لهم مثيل في الاطلاع وسعة المدرية وقد قضوا حياتهم في الاعجاب بمعجزة البيان في القرآن التي كانت تعدياً للعالمين . وقد افاض علماء العرب بذلك وكتبوا الكتب المطلوبة . وربما كان معدوراً شخص تعلم اللغة العربية، دون أن يتنفس ذلك ، لأنه لا يستطيع فهم كلام العرب القديم بله القرآن الكريم . والأخطاء التي يشير إليها المؤلف لا شك أنه لم يفهم وجوه البلاهة فيها كما شرحها المفسرون . ووورودها في القرآن الكريم وتلقي العرب لها دليل على صحتها وأصالتها لأن السمع في اللغة هو الأصل فهو حجة على النحوين شأنه في ذلك كشان كلام العرب الفصحاء وليس النحوين حجة على كلام العرب بله القرآن الكريم - المترجمة .

٢٤- هذا غير صحيح لأن المسلمين منذ بداية أمرهم فكروا في تحرير إخوانهم العرب من سلطان الروم وسلطان فارس وكذلك في القرآن اشارات كثيرة إلى رسالة الرسول العالمية .

ثم ان التعبير غير دقيق فان فريضة العج وحي الى الرسول ورد في القرآن الكريم - المترجمة .

٢٥- أبو الفداء ( في النصف الأول من القرن الرابع ) الملك المؤيد صاحب حماه والرحلة ابن بطوطه ( في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ) راجع ما يتعلق بجهما ما ورد في كتاب ( Introd. 3, 794, 1616 ) .

٢٦- ابن عربي ولد في مرسية وانتقل إلى أشبيلية ثم قام برحلات ، ولعل المؤلف نسبة إلى أشبيلية مجرد اقامته فيها حيناً من الزمن - المترجمة .

٢٧- يجب أن نضيف هنا أن العمل الجسمى الذى يتباوطا بفعل العراوة يصبح تباطؤه مضاعفاً ويتناقض إلى حد الإدنى اذا اجتمع الصوم وعفن الفصل معاً فيصبح رمضان بمقدسى الأمر موسمًا لبعض الراحة كما يكون موسم حماسة دينية .

٢٨- « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والأذالم رجس من عمل الشيطان فاجتنبوا لعلكم تفلحون » (القرآن - السورة الخامسة - الآية ٩٠ ) سورة المائدة . إن كلمة الخمر تفيد كل ما يخدر ويسنم الفكر . قال رسول الله: « كل شراب أسكر فهو حرام » ( البخاري ٧٤ : ٣ ) وقال أيضًا: « كل ما أسكر كثيرة فقليله حرام » ( أبو داود ٥٥:٢٥ )

٢٩- ان شرب الخمر لا يسبب الارتداد عن الدين وإنما هو كبيرة ومرتكبها فاسق عند أهل السنة والجماعة وهنالك خلاف عند المذاهب الاسلامية في أمر شربها - المترجمة .

٣٠- في القرآن الكريم تنوية بصفة القرآن العربية . ولما كان في بلاغته واعجازه كامل البيان لزم أن يفهمه العرب وأن يسلك سبيله إلى قلوبهم وليس باعجمي فيمتنع عليهم فهم . أما الرسول عليه الصلاة والسلام فقد أوتي جوامع الكلم . والإحاديث التي وردت في هذا الشأن كما أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال قال رسول الله: إنما عربي والقرآن عربي ولسان أهل الجنة عربي ، وكما أخرج الطبراني أيضاً في الكبير والأوسط والحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أحب العرب لثلاث لأنني عربي وكلام أهل الجنة عربي . لم يتفق علماء الحديث على صحته . وقد ورد في الجامع الصغير للسيوطى برقم ( ٢٢٥ ) : أحب العرب لثلاثة لأنني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي . وذكر المناوى في ( فيض القدير ) قول العقيلي عن الحديث انه منكر لا أصل له . وقول الهيثمى انه ضعيف وقول ابن العاتم وابن الجوزى انه موضوع وظن الذهبي فيه انه موضوع أيضاً . فليرجع الى فيض القدير للاطلاع على موطنه الضعف في استناده . ثم أنهى المناوى التعليق عليه بقوله : وأما قول السلفي هذا حديث حسن فمراده به كما قال ابن تيمية حسن متنه على الاصطلاح العام لا حسن استناده على طريقة المحدثين - المترجمة .

٣١- ان الفروق بين القرآن والمعهد الجديد شاسعة جداً . وذلك يعود الى ان القرآن صدع به وتلاه الرسول نفسه وقد كان يعلم تمام العلم ماذا يبغى فاشتمل القرآن على جميع المسائل الجوهرية في حياة المسلم من دين وتوحيد وشريعة وتقويم ولغة . أما المعهد الجديد فلم يمس قضية اللغة وإذا طوبينا صفحنا عن الف لغة نقل إليها الانجيل يكفي ان نذكر ان الكنيسة الكاثوليكية قد نجحت تقريباً في احلال لغة أخرى ( مقدسة ) وهي اللاتينية محل لغتها الأصلية . وكذلك لم يتذكر الانجيل تقويمًا جديداً . إنما ادخل التاريخ المسيحي راهب سيسى من النصف الاول من القرن السادس يدعى ديونيسيوس ايسيغفوس وكان قبوله تدريجياً فاتراً .

٣٢- هكذا يرى المستشرقون أما الواقع فان انتشار الاسلام كان في البداية قائماً على الدعوة الحسنة والرفق ومنع الفحشاء . وقد تعرض المسلمين الأوائل للإهانة متفاوتة من الاضطهاد والتعذيب وأمثالهما مما هو معروف في تاريخ الاسلام فلما توحدت العرب بالاسلام في الجزيرة اتصل توحيدهم بالسعى إلى تحرير العرب الذين كانوا يقاومون الاضطهاد تحت حكم بيزنطة من جهة والفرس من جهة ثانية في سوريا وما بين النهرين وكذلك تحرير أخوانهم في شمالي افريقيا . لقد أتى الاسلام بقيم جديدة تؤكد العدالة والمساواة بين الناس ورفع الاستغلال والتمييز والتفرقة العنصرية ودعم ما اثنته المسيحية من قيم صحيحة ومكافحة الشرك وهلم جرا . والدليل هو ان العرب في سوريا والعراق مدحوا ايديهم الى اخوانهم وأعانونهم عند قيومهم على تحرير تلك البلاد . ولقد بقي الرومان مدة طويلة في شمالي افريقيا فما استطاعوا ادخال لغتهم المغايرة للغة الشعب الأصيل في تلك المواطن وكانت لهجة قرية جداً من لهجات العربية وهذا ما يدل على سرعة اجتياح العرب المسلمين تلك البلاد اذقدموا رافعين لواء التحرير وشعائر انسانية جديدة كريمة - المترجمة .

٣٣- كلما وهن التمييز لدى الباحث وغداً الفكر الناقد عنده فتوارت عنه بعض الاسباب التي لم ينفذ الى جوهها عمد الى الكلام على العظ ولهذا لا نجد كلمة العظ هنا الامتحنة في تفسير منطق تاريخي مبرم . ولم تكن بيزنطة ولا فارس اذ ذاك على درجة الضعف التي يصورها المؤلف بل كانتا ذاتي قوة ويسار كبيرين . والشجاعة من شمائل العرب ولكن لا يمكن ان ننكر وجود الجبان المتباذل بينهم فالشجاعة صفة عالية للمرء ولكن التنظيم الاجتماعي والأهداف

الرقيقة المشتركة تزيد في شجاعة الشجاع وتحوّل دون انهزام الجبان والفضل في شجاعة المسلمين حسن تنظيمهم وقوّة مثلهم العليا التي كانوا ينشدونها . ان الشخص الذي يسلك الغاب في الليل وحيداً مثلاً دون أن يعرف درويه لا بد أن يساوره الخوف ولكن الشخص الذي درس مواقع الغاب وعرف مسالكه حق المعرفة يعرف كيف يختاره سلام ولو كان أقل شجاعة فالشجاعة تتوطد بالعلم والأدراك والعقل والتنظيم . وهكذا يبدو لنا كلام المؤلف فيه شيء من الاعتبارات العامة اذ يتكلم على الخط والشجاعة وكانه سمع بسيرة عنترة بن شداد . - المترجمة .

٤- يستعمل هنا المؤلف كلمة العاصفة ولقد حملت تلك العاصفة اذا أردنا استعمال الفظ نفسه الغيث المدار المخصب الى تلك الربوع وذلك بنشر العلم والثقافة وهو الموضوع الذي يعالج المؤلف ، ولذلك نراه مسرفاً عند استعمال لفظ العاصفة وكان يمكن أن يقول : « فما كان يوسع كلتا الامبراطوريتين أن يلبي فسادهما أمام انبلاج الحق » . ان فتح الشام والعراق كان كما أسلفنا في حقيقته تحرير المغرب الذين كانوا يcabدون العنا من سيطرة الروم والفرس واستبدادهم بهم وطغيانهم عليهم . فلم يكن ذلك من غضاضة الشام ومناذرة العراق خيانة ليزرنطة ولا لفارس بل كان ذلك وفاء لقوميّتهم وتشوقاً للقيم الرفيعة من حق وعدالة ورفق واحسان وغير ذلك مما يشرّب به الدين . - المترجمة .

٥- هذا أبعد ما يكون عن الصواب لأن النازية قائمة على التمييز العنصري وعلى النار والعديد ولذلك اخفقت وكانت كالبرق الغلتب أو كالصاعقة احرقت الانفس واليابس في بلاد أوروبا ، على حين كان الاسلام دعوة لقيم انسانية صحيحة ولذلك اتسع واستثار به الناس وكان وحمة لكثيرمن الأقوام وتوكّلت جذوره في الأرض ( فاما الزيد فيذهب جفاء وما مَا ينفع الناس فيمكث في الأرض ) . حتى من جهة السرعة لا يجوز هذا التشبيه لأن الفرق واضح بين الدعوتين من جميع الجهات ( ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ) ولم يقل بالنار والقتل والاضطهاد . - المترجمة .

٦- للحصول على تفاصيل أوفر راجع كتاب فيليب حتى Philip Hitti : History of the Arabs (London 1937, Isis 28, 503-04) 4th ed.

نقل كتاب فيليب حتى في طبعته الرابعة الى العربية في ثلاثة اسفار طبع بيروت ١٩٤٩ - ١٩٥١ - المترجمة .

٧- هذا التشبيه خاطئ من أساسه لأن العرب بنت وشيدت ولم تغرب . ونقلت نور الإنسانية لا ظلام الظلم والاضطهاد . ثم ان العرب حتى قبل الاسلام كانوا أصحاب مثل عالية والشعر العربي ينطق بذلك كما ان بعض الأحلاف التي سبقت ظهور الاسلام كحلف القضوں تشف عن تحسّن عميق بالساواة ومنع الضيم ورفع العيف . وقد حاول المؤلف أن يلحدض ذلك التشبيه لينتهي الى نتيجة أخرى لا تقرّه عليهما فيها شيء من التكلف وبذر الشقاق بين دينين متنافيدين . - المترجمة .

٨- هذا أيضاً أبعد ما يكون من الصحة لأن الاسلام كان دعماً للمسيحية وتصديقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل . فلم يكن هنالك نصر وإنما كان هنالك تأكيد للقيم المسيحية . ودليل آخر على ذلك هو ان الاسلام انحاز الى الروم في صراعهم مع فارس المشرفة وأعلن قرب انتصار الروم على فارس وكانت تلك احدى معجزات القرآن الكريم ( انظر سورة الروم ) . - المترجمة .

٩- لقد بالغ السير توماس ارنولد ( ١٨٦٤ - ١٩٣٠ ) في وصف تسامح المسلمين مع الشعوب الأخرى التي تدين بعقائده مختلفة في كتابه :

The Preaching of Islam : A History of the Propagation of the Muslim Faith (London 1896  
reprinted 1913).

وذلك لرغبتِ العميقَة في كسب صداقتهم . وغالباً ما يستشهد المدافعون عن الاسلام بالآلية ( « لا اكره في الدين » القرآن ٢ ، ٢٥٧ ) الا أن هذا ناقضه آيات أخرى في القرآن وفي الأحاديث تشرح فريضة جهاد الكفار ( Introd. 3, 1274, 1722, 1862 ) ، وعلى هذا يمكننا مسألة التسامح أن نرسم للمسلمين صورة ناصعة البياض أو حالة السواد ومثل هذا يصدق على المسيحيين أيضاً .

★ ينس المؤلف دائماً أن يفرق بين الشرك وعبادة الأوثان من جهة وبين الديانات السماوية كاليسوعية من جهة أخرى التي دعمها الاسلام كما يعرّب سرعة على شناعة محاكم التفتيش وحروب الاستعمار .

٤٠- لم تكن الدولة العربية الإسلامية في أساس مبادئها تشبه في شيء امبراطورية روما ولا امبراطورية القسطنطينية ولا امبراطورية فارس ولذلك مثل هذا التعبير مبالغ فيه - المترجمة .

٤١- وذلك في حكم الامبراطور موسو هيتو (١٨٦٨ - ١٩١٢) الذي دام أقل من نصف قرن . وكان هذا العهد أقصر مدة من عهد تمثيل العرب للثقافة اليونانية . وهذا أمر طبيعي فكل شيء كان أبيضاً في العصور الوسطى وما كان للعرب تلك الأدوات المدهشة التي تزيد في سرعة كل عملية تربية (كالطبع والمعركتات البخارية والبرق وغيرها ) . هذا ويجوز أن نقايس تمثل اليابانيين الأوائل للثقافة الصينية بتمثيل العرب للثقافة اليونانية في طول المدة . ولكن تمثل اليابانيين وقف عند ذلك الحد على حين أن المكاسب العربية كانت حلقة في تطور حضارتنا نحن ، ولذا جاز أن نهمل الثقافة اليابانية إلا إننا لانستطيع أن نفرب صفحات عن العصارة العربية دون خسارة .

٤٢- أفضل الأمثلة على اعتساف التأويل جاء به الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره الكبير (الجواهر في تفسير القرآن الكريم ) (١٩٢٢ مجلداً وما بعده ) وفي كتب أخرى أحدهما (الناظر المرصع بجواهر القرآن والعلوم ) (١٩٠٦) وهو على ما يبدو مختصر مؤلف آخر أكبر حجماً وقد ترجم إلى الفارسية والتركية . راجع كتاب :

Charles Clarence Adams : Islam and Modernism in Egypt. (p. 245, 1933).

نقل إلى هذه المعلومات ذميلى في جامعة كولومبيا السيد آرثر جيفري (في رسالة مؤرخة : نيويورك ١٥ آذار ١٩٥٠) .  
★ انتهت تحشية المؤلف ونحن نرى أن القرآن كتاب وحي وارشاد ومخاطبة لعقل العرب والأمم لحملها على السبيل الأقوم ولذلك لم يكن بحاجة إلى معالجة التقاضايا العلمية رياضية وكيماوية وغيرها . بيد أن الوحي والإلهام العريقين قد يعملان في تعبيرهما أموراً علمية تستوعي الأنظار وتستدعي الاعجاب . من ذلك مثلاً الآية الكريمة « فاتقوا النار التي وقودها الناس والجحارة » فربما يستغرب القارئ أول الأمر ابراد العجارة وقوداً للنار لأن العجارة من شأنها أن تطفئ النار ولكن الفيزياء الحديثة تبين لنا أن العجارة إذاً كانت عالية جداً كما هي الحال في الشمس مثلاً تشبهت الأجسام وكانت في حالة تسمى البلاسم بحيث تتولد العجارة عن تفاعلات نووية فيها . وكذلك ورود المهل « يوم تكون السماء كالمهل » وأيضاً « كالمهل يغلي في البطنون » وأيضاً « كالمهل يشوي الوجه » ولهم عدة معان . والغريب أن بعض المفسرين رأوا أنه الفضة المذابة ومن المعروف في الفيزياء الحديثة أن الأجسام التي هي في جدول متسلف ما كان قبل الفضة منها كان ميالاً إلى الالتحام والانضمام وما كان بعدها جنح إلى التقrossover الانقسام فالفضة بهذا الاعتبار أثبتت المعان نوعاً .

وكذلك لا نعجب من الآية الكريمة التي تشير إلى حركة الأرض أشاره طيفنة قبل ما ذكره بعض علماء العرب أمثال السجزي وقبل كوبيرنيكوس وكيلر يقرؤن طويلة : « وترى الجن تعسها جامدة وهي تمر من السحاب صنع الله الذي اتقن كل شيء » . ولكن القرآن مع ذلك لم يكن كتاب فيزيائياً ولا فلك وإنما هو وحي وارشاد وهداية .

هذا وربما كان يريد المؤلف أن ممارسة الخلفاء الراشدين لعلمهم ، واقتضاءهم ذلك أمر غريب ولكن الأمر الذي لا جدال فيه هو أن القرآن والرسول والخلفاء رفعوا من شأن العلم ما لم يرفعه عهد آخر . وتنويع القرآن بمكانة العلم وبرفع درجات العلماء معروفة وكذلك أحاديث الرسول التي تحدث عن طلب العلم ولو كان بالصين وتدبره فريضة على أبناء المجتمع . ان طلب العلم ونشره كالهدايا فرض في الإسلام . ونحن نقدر المؤلف لعدم تنبئه بذلك وربما لم يتسع له الوقت في محاضرة موجزة لكي يتطرق لهذه القضية . - المترجمة .

٤٣- في بحوث أكثر المستشرقين بقایة عرقية متأصلة قائمة على التمييز بين الأمم واعطائها خصائص ثابتة وقد كشفت البحوث الاجتماعية الحديثة خطل ذلك وسوء مغباته - المترجمة .

٤٤- للاطلاع على بعض مصاعب المصطلحات انظر :

Amélie Marie Goichon : Lexique de la langue philosophique d'Ibn Sinä (510 p.) Paris 1938;  
(Isis 33, 326-29).

أما اليوم فان ابتكار مصطلحات تقنية جديدة باللغة العربية يعود إلى الظهور بشكل ملح . والعاجة إلى ترجمة عدد هائل من الكلمات يجعل الحلول الجيدة لا تتوافق في كل الأحيان على الرغم من طاقات اللغة العربية الفنية . وهكذا فإن اللغة العربية الحديثة مشحونة بالعديد من الكلمات شانها في ذلك شأن اللغة الإنجليزية الحديثة . راجع فيما يتعلق بالمصطلحات الطيبة القاموس المتقن الذي أعدته وزارة التربية المصرية .

Mohammed Sharaf : English - Arabic Dictionary of Medicine, Biology and Allied Sciences (quarto 1048 p, Cairo 1929; Isis 14, 537).

وتذكر الصعوبات نفسها بالطبع كلما نقلت مجموعة من المعرف الى لغة غير مهيبة لذلك . لقد واجه أمثال هذه الصعوبات العلماء الذين ترجموا من العربية الى اللاتينية وعانياها علماء (الميجي) الذين نقلوا عن اللغة الانكليزية ( وعن لغات اوروبية أخرى ) الى اليابانية . وكل حال تساعد على تفسير الاحوال الأخرى وقد شرح مشكلة الترجمة اليابانية بوضوح عظيم .

Sir George Bailey SanSom : The Western World and Japan (P. 399-404; New York 1950; Isis 41.

٤٥- ينبغي التفريق بين علي الطبرى ومحمد الطبرى المشهور (في النصف الأول من القرن العاشر) مؤلف الكتاب المتقن العام في التاريخ وصاحب التفسير العظيم . لقد كان تعليقى عن الكاتب الأول في (Introd. 574) غير واف لأنى كنت في عام ١٩٢٧ لا أعرف كتابه « فردوس الحكمة » الذي طبعة في السنة التالية M. Z. Siddiqi (برلين ١٩٢٨) راجع التعديل الذى كتبه Max Meyerhof (Isis 16, 6-54). أما تعليقى الذى كتبته عن رشيد الدين بعد عشرين عاما فهو أطول وأوسع بالمطلوب (Introd. 3, 969-76) .

٤٦- (Introd. 3, 133, 797-98)

٤٧- يقول بعض الامريكيين عن سكان مين انهم يعيشون « هناك في الشرق Down East » و (مين) ولاية تقع في الشمال الشرقي من الولايات المتحدة وهذا اما ان يكون مجرد تعبير استعمله بعض الامريكيين الذين في العاصمة او في المدن الغربى وأما ان يكون متعدرا من زمن الفتوحات الاسپانية فلقد كانوا يستعملون الغرائط العربية التي تجعل الشمال في الأسفل . المترجم ) . ومن ناحية أخرى فان بعض الكتب الصينية التي تبحث في آسيا الوسطى او الشرق الأوسط تكون عنوانينها كما يلى : أخبار البلاد الغربية Tsi yu t'u chi, Records of Western Countries

راجعا (1, 47-6) Introd. 3, 2113) (Wikipedia) (عنوانينا فى الآخرين مطلعها Hsi اي الغرب (على ان الصينيين بهذه المناسبة واليابانيين كانوا قد يسمون بلاد الشرق الأوسط الصينى الكبير (دai shin) وذلك في الفترة التي تالت فيها الحضارة العربية الإسلامية - المترجم ) .

٤٨- كان عصر قرطبة الذهبي في عهد السلالة الأموية (٧٥٦ - ١٠٣١) وخاصة في القرن العاشر . ثم غدت قرطبة منذ عام ١٠٩١ الى ١١٤٢ تحت سلطان سلاطنة المرابطين (من البربر) وكان ثالث ملوكها على (بن تاشفين) الذي حكم منذ ١١٠٦ - ١١٤٣ .

٤٩- راجع ما كتب عن ابن رشد (١١٢٦ - ٩٨) في (Introd. 2, 355-61) وعن ابن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤) (Introd. 2, 369-80) وعن الaitali القديس توماس الاكتيني (١٢٢٥ - ٧٤) (Introd. 2, 914-21) وقد سبق أن تكلمنا على قرطبي آخر وهو سينيكا . وانه لفضل كبير لهذه المدينة ان تهب للعالم ثلاثة رجال بمثل هذه العظمة وأطرف ما في الأمر انه لم يكن من بينهم مسيحي واحد .

٥٠- كان اليهود الذين يعيشون في دار الاسلام يكتبون بالعربية ولكن يعروف عربة . أما لغتهم العبرية فكانت مقصورة على أمرهم الدينية . وقد كتبت أولى قواعد التحول لغة العبرية باللغة العربية . كما ان كتب التحو العبرية في أمريكا تطبع على الأغلب بالانكليزية ( الخامسة ) .

٥١- ان أول مترجم عظيم من العربية الى اللاتينية هو سلطان مصر (في النصف الثاني من القرن العاشر عشر) . ولد في قرطاجة وتالق في مونت كاسيرو منذ عام ١٠٥٦ م حتى موته عام ١٠٨٧ م خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر ترجمت الكتب العربية شيئا الى اللاتينية وبهذا انتقلت الكتب العربية اليونانية الى الغرب المسيحي وازادت تبعا لذلك مكانة العرب عند الغرب وبلغت ذروتها تقريبا في غرة القرن الثالث عشر .

٥٢- ان غارات تيمورلنك الوحشية على الشرق الأوسط في نهاية القرن الرابع عشر (Introd. 3, 1467-74) دمرت بعض المدن الرئيسية في الشرق الاسلامي (بغداد، دمشق، حلب وغيرها) وكانت ضربة قاسمة تقريبا لسوريا ولكنها أبقت على بلاد اسلامية أخرى كالجزيرة العربية مصر اذا لم تذكر المغرب الاسلامي وما كان لتيمورلنك أن يصيّب العصارة الاسلامية على هذا النوع من العممق لو كانت هذه العصارة فياضة زاخرة بالحياة وقت مجده .

٥٣ - لهذا السبب اتخدت تركية الحديثة موقفا غير اسلامي . كتب تاريخ الرياضيات العثمانية صالح ذكي جزءان بالتركية (2 Vols in Turkish, Istanbul 1911, Isis 19, 506-15)

وكتب تاريخ العلم العثماني : عبد العق عدنان اديوار (In French, Paris 1939, Isis 32, 186-89)

ولهذا الكتاب طبعة جديدة موسعة بالتركية (Istanbul 1943, Isis 38, 21-25) .

٥٤ - ان ابن النفيس (في النصف الثاني من القرن الثالث) كان طبيبا مصريا او سوريا وتوفي في القاهرة (لا في دمشق) عام ١٢٨٨ . راجع

Sarton : Introd. (2, 1099-1101). Max Meyerhof : « Ibn an-Nafis and his theory of the lesser circulation (Isis 23, 109-20, 1935).

ويعد Joseph Shacht طبعة وترجمة جزئية بالإنكليزية لفاضل بن ناطق (Isis 37, 194)

٥٥ - انظر ما يتعلق بابن طفيل (في النصف الثاني) من القرن الثاني عشر (Introd. 2, 354) . وقد أعد احسن طبعة لعي بن يقطنان المرحوم Leon Ganther مع ترجمة فرنسية (Beyrouth 1936, Isis 30, 100-03) .

٥٦ - يوسيبيوس القيساري Eusebius of Caesarea (في النصف الأول من القرن الرابع) ولد في فلسطين وكان اسقا على القيسارية بفلسطين من عام ٣١٣ حتى وفاته عام ٣٤٠ (Introd. 1, 357) وهو أحد رجالات الشرق الأوسط المشهورين الكثرين في الصور الرومانية .

٥٧ - أشاد بمثل هذا الدليل الفاسد ممثلو عدد من البلاد المتسلطة أرادوا أن يظنوا أن انتصارهم ليس أمرا عارضا وإنما هو ببساطة ثمرة تفضل الله لهم وعاقبة تفوقهم الذاتي . ويحيط كتاب بوسوبه « مقال في التاريخ العام Discours Sur l'histoire Universelle ١٦٨١ مثلا جيدا في هذا الموضوع » .

٥٨ - لا نملك - للأسف - كلمة للتمييز بين المؤلفات الكيميائية الريشة والجيدة كما هو الأمر في تعبيري علم الفلك Astronomy وعلم التجيم Astrology . بعض المؤلفات الكيميائية العربية تعوي أصول الكيمياء وبعضها الآخر مشو بالأفكار السحرية وبعضها الأخير خليط من المعرفة الموضوعية ومن السحر معا .

٥٩ - راجع عن ابن خلدون (١٣٣٣ - ٧٨) ما جاء في (3, 1766-79) . وراجع في ص ١٧٧٢ ما دار من المناوشات حول آرائه في ظواهر ما بعد النفس .

\* ربما سها المؤلف فكتب تاريخ وفاته ١٣٧٨ وهي ١٤٠٦ .

٦٠ - أخذ هذا الشاهد من مقدمة ابن خلدون الطبعة العربية (الجزء الثالث ، ١٠٢ باريز ١٨٥٨) او من الطبعة الفرنسية (الجزء الثالث ، ١٤٢ ، باريز ١٨٦٨) وورد ذكره في (Introd. 3, facing 1019, 1777) .

٦١ - ان المؤلفات التي تطرقت للغرافات العربية كثيرة . وللحصول على فكرة عامة راجع الموسوعة الإسلامية تحت كلمة ( Kahn ) (٢، ٦٢٤ - ٦٢٦) ، (قيافة) (٢، ١٠٤٧) (سر) (٤، ٤٠٩ - ٤١٢) وكذلك راجع :

Isis (33, 298-99)

John Walker : Folk Medicine in Modern Egypt London 1934, Isis 24, 264).

وراجع فيما يتعلق بغرافات الصابئة وهي خلاصة خرافات الشرق الأوسط الكتاب الحديث الذي الفتة :

Mrs. E. S. Drower (Ethel Stefana Stevens) : The Book of the Zodiac (Royal Asiatic Society, London 1949).

اما بشان الغرافات الأمريكية فراجع :

Gilbert Seldes : The Stammering Century (New York 1928), Charles Wright Ferguson : The Confusion of Tongues (New York 1928),

Bart J. Bok and Margaret W. Mayall : « Scientists book at astrology » (Scientific Monthly, March 1941), (Isis 35, 181-82; 40, 79-81).

٦٢- كان الحكماء أكثر تعرضاً من علماء الدين إلا أنهم كانوا يضطرون إلى الادعاء الشعبي غير المعقولة التي غرسها أولئك . كان حكماء المسلمين في المغرب مثلاً وهم مخلصون للعقل هم الذين حموا حماة أئمة الفلسفه راجع :

Léon Gauthier : Ibn Rochd (Paris 1948; Isis 41, 104-06).

٦٣- كان يربون على العالم المسيحي في العصور الوسطى طائفة كبيرة من الغرائب راجع في وصفها :

Lynn Thorndike : History of Magic and Experimental Science (6 Vols. New York 1923-41; Isis 6, 74-89, 23, 471-75; 33, 691-712).

وقد عدل من هذه الغرائب المسيحية جملة من المعارف واللاهوت العقلي ( خاصة عند القديس توماس ) كانت تقوى يوماً بعد يوم . وفي حين كان المذهب العقلي عند ابن رشد يتوارى ويختبئ في الشرق كانت دعائمه تتوطد في الغرب ويوفق بينها وبين المسيحية .

٦٤- راجع عن محمد عبد ( ١٨٤٩ - ١٩٠٥ ) : Joseph Schacht (Encycl. of Islam 3, 678-80, 1933)

. والترجمة الفرنسية لرسالة التوحيد (Paris 1925; Isis 9, 456-57)

٦٥- معرفتي بالمعاهد الأمريكية تقتصر على الجامعة الأمريكية إلا أنها معرفة جيدة للغاية لأنني نلت شرف دعوتها إبان خريف وشتاء عام ١٩٣١ - ١٩٣٢ . وراجع التقرير الذي كتبه في ( 19, 322-29, 1933 ) Isis ويفضل مراجعة كتاب:

Stephen B. L. Penrose Jr. That They May Have Life the story of the AUB 1966-1941 (New York 1941, Isis 34, 40-41; 39, 7).

٦٦- إن لفظ ( الجمهور ) يشتمل على الأغنياء والفقراء معاً! الأغنياء كالقراء قد يكونون بحاجة إلى النعمة والفضيلة .

